٣

صفوة التفاسير

القسم الثالث

تفسير
سورتي المائدة والأنعام

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طبع على نفقة المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم
بيروت

اهداءات ٢٠٠١

الاستاذ / حسنى رياض

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الثالث

تفسير
سورتي المائدة والأنعام

تأليف
محمّد علي الصّابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، العمارية، الرياض



بين يدي السورة

* سورة المائدة من السور المدنية الطويلة ، وقد تناولت كسائر السور المدنية جانب التشريع بإسهاب مثل سورة البقرة ، والنساء ، والأنفال ، إلى جانب موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب ، قال أبو ميسرة : المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ وفيها ثمان عشرة فريضة [١].

* نزلت هذه السورة منصرفَ رسول الله ﷺ من الحديبية ، وجماعها يتناول الأحكام الشرعية لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل ، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار .

* أما الأحكام التي تناولتها السورة فنلخصها فيما يلي : « أحكام العقود ، الذبائح ، الصيد ، الإحرام ، نكاح الكتابيات ، الردة ، أحكام الطهارة ، حدّ السرقة ، حدّ البغي والإفساد في الأرض ، أحكام الخمر والميسر ، كفارة اليمين ، قتل الصيد في الإحرام ، الوصية عند الموت ، البحيرة والسائبة ، الحكم على من ترك العمل بشريعة الله » إلى آخر ما هنالك من الأحكام التشريعية .

* وإلى جانب التشريع قصَّ تعالى علينا في هذه السورة بعض القصصَ للعظة والعبرة ، فذكر قصة بني إسرائيل مع موسى وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان ممثلة في هذه الشرذمة الباغية من « اليهود » حين قالوا لرسولهم ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾ وما حصل لهم من التشرد والضياع إذ وقعوا في أرض التيه أربعين سنة .

* ثم قصة ابني آدم وهي قصةٌ ترمز إلى الصراع العنيف بين قوتي الخير والشر ، ممثلة في قصة « قابيل وهابيل » حيث قتل قابيل أخاه هابيل وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض أريق فيها الدم البريء الطاهر ، والقصة تعرض لنموذجين من نماذج البشرية : نموذج النفس الشريرة الأثيمة ، ونموذج النفس الخيِّرة الكريمة ﴿فَطَوَّعَتْ له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ كما ذكرت السورة قصة « المائدة » التي كانت معجزة لعيسى بن مريم ظهرت على يديه أمام الحواريين . والسورة الكريمة تعرض أيضاً لمناقشة

(١) القرطبي ٦/ ٣٠ .

« اليهود والنصارى » في عقائدهم الزائفة ، حيث نسبوا إلى الله ما لا يليق من الذرية والبنين ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وحرفوا التوراة والإنجيل ، وكفروا برسالة محمد عليه السلام إلى آخر ما هنالك من ضلالات وأباطيل ، وقد ختمت السورة الكريمة بالموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيث يُدْعى السيد المسيح عيسى بن مريم على رءوس الأشهاد ويسأله ربه تبكيتاً للنصارى الذين عبدوه من دون الله ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ ويا له من موقف مخزٍ لأعداء الله ، تشيب لهوله الرءوس ، وتتفطر من فزعه النفوس ! !

فضلها : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها[1] .

التسمية : سميت سورة « المائدة » لورود ذكر المائدة فيها حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيداً وقصتها أعجبُ ما ذكر فيها لاشتمالها على آيات كثيرة ولطفٍ عظيم من الله العليّ الكبير .

* * *

قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . . إلى . . أولئك أصحاب الجحيم﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠) .

اللغة : ﴿العقود﴾ أصل العقد في اللغة : الربط تقول عقدتُ الحبل بالحبل ثم استعير للمعاني قال الزمخشري : العقد العهدُ الموثّق شبّه بعقد الحبل قال الحطيئة :

قومٌ إذا عقـدوا عقـداً لجارهم ... شدّوا العناج وشدّوا فوقـه الكرَبا[2]

﴿بهيمة الأنعام﴾ البهيمة ما لا نطق له لما في صوته من الإبهام والأنعام جمع نَعَم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿القلائد﴾ جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدي من لحاء الشجر ليُعلم أنه هدي ﴿يجرمنكم﴾ يكسبنكم يقال: جرم ذنباً أي كسبه وأجرم اكتسب الإثم ﴿شنآن﴾ الشنآن : البغض ﴿الموقوذة﴾ الوقذ : ضرب الشيء حتى يسترخي ويشرف على الموت ﴿النُّصب﴾ صنمٌ وحجر كانت الجاهلية تنصبه وتذبح عنده وجمعه أنصاب كذا في اللسان ﴿الأزلام﴾ القداح جمع زَلَم كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة ضرب بالقداح وهو الاستقسام بالأزلام[3] ﴿مخمصة﴾ مجاعة لأن البطون فيها تخمُص أي تضمر والخمص ضمور البطن ﴿الجوارح﴾ الكواسب من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والصقر والشاهين .

سبب النزول : عن ابن عباس أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظّمون الشعائر وينحرون ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله . .﴾[4] الآية .

---

(١) أخرجه أحمد . (٢) الكشاف ١/ ٤٦٦ . (٣) البحر ٣/ ٤١٠ . (٤) الطبري ٩/ ٤٦٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ الخطاب بلفظ الإيمان للتكريم والتعظيم أي يا معشر المؤمنين أوفوا بالعقود وهو لفظ يشمل كل عقدٍ وعهد بين الإنسان وربه وبين الإنسان والإنسان قال ابن عباس : العقود العهود وهي ما أحلَّ الله وما حرّم وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام[1] ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي أُبيح لكم أكل الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم بعد ذبحها إلا ما حُرِّم عليكم في هذه السورة وهي الميتة والدم ولحم الخنزير الخ ﴿غير مُحلِّي الصيد وأنتم حُرُمٌ﴾ أي أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون ﴿إن الله يحكم ما يُريد﴾ أي يقضي في خلقه بما يشاء لأنه الحكيم في أمره ونهيه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحلوا شعائر الله﴾ أي لا تستحلوا حُرمات الله ولا تعتدوا حدوده قال الحسن : يعني شرائعه التي حدها لعباده وقال ابن عباس : ما حرّم عليكم في حال الإحرام[2] ﴿ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد﴾ أي ولا تستحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه ، ولا ما أُهدي إلى البيت أو قُلّد بقلادة ليعرف أنه هدي بالتعرض له ولأصحابه ﴿ولا آمِّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام لحج أو عمرة ، نهى تعالى عن الإغارة عليهم أو صدهم عن البيت كما كان أهل الجاهلية يفعلون ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ أي إذا تحللتم من الإحرام فقد أُبيح لكم الصيد ﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ أي لا يحملنكم بغضُ قوم كانوا قد صدوكم عن المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ أي تعاونوا على فعل الخيرات وترك المنكرات ، وعلى كل ما يقرب إلى الله ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ أي خافوا

---

(١) هذا القول اختاره الطبري والزمخشري ، والأرجحُ العموم فهو أمرٌ بالوفاء بكل عقد وهو اختيار صاحب البحر وجمع من المفسرين قال ابن أسلم هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين كذا في ابن كثير . (٢) القول الأول أرجح وهو اختيار الطبري لعموم الآية .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ

عقابه فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ أي حُرِّم عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة وهي ما مات حتف أنفه من غير ذكاة والدم المسفوح ولحم الخنزير قال الزمخشري : كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة التي تموت حتف أنفها والفصيد وهو الدم في الأمعاء يشوونه ويقولون لم يحرم من فُزد ـ أي فصد ـ له[1] وإنما ذكر لحم الخنزير ليبيّن أنه حرام بعينه حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي ﴿وما أُهلَّ لغير الله به﴾ أي ما ذكر عليه غير اسم الله أو ذبح لغير الله كقولهم باسم اللات والعزّى ﴿والمنخنقة﴾ هي التي تُخنق بحبل وشبهه ﴿والموقوذة﴾ هي المضروبة بعصا أو حجر ﴿والمتردية﴾ هي التي تسقط من جبل ونحوه ﴿والنطيحة﴾ هي التي نطحتها بهيمة أُخرى فماتت بالنطح ﴿وما أكل السَّبُع﴾ أي أكل بعضَه السبع فمات ﴿إلا ما ذكيتم﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت قال الطبري معناه : إلاّ ما طهرتموه بالذبح الذي جعله الله طهوراً[2] ﴿وما ذُبح على النُّصب﴾ أي وما ذبح على الأحجار المنصوبة قال قتادة : النُّصبُ حجارةٌ كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك قال الزمخشري : كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أي وحُرِّم عليكم الاستقسام بالأزلام أي طلب معرفة ما قُسم له من الخير والشر بواسطة ضرب القداح قال في الكشاف : كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معاظم الأمور ضرب بالقداح وهي مكتوب على بعضها : نهاني ربي ، وعلى بعضها أمرني ربي ، وبعضُها غُفْلٌ فإن خرج الآمر مضى لغرضه وإن خرج الناهي أمسك وإن خرج الغفل أعاد[3] ﴿ذلكم فسق﴾ أي تعاطيه فسقٌ وخروجٌ عن طاعة الله لأنه دخولٌ في علم الغيب الذي استأثر الله به علاّم الغيوب[4] ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أي انقطع طمع الكافرين منكم ويئسوا أن ترجعوا عن دينكم قال ابن عباس : يئسوا أن ترجعوا إلى دينهم أبداً ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾ أي لا تخافوا المشركين ولا تهابوهم وخافون أنصركم عليهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أي أكملت لكم الشريعة ببيان الحلال والحرام ﴿وأتممتُ عليكم نعمتي﴾ بالهداية والتوفيق إلى أقوم طريق ﴿ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ أي اخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان وهو

(١) الكشاف ١/ ٤٦٨ . (٢) الطبري ٩/ ٥٠٢ .

(٣) الكشاف ١/ ٤٦٩ . (٤) هذا إذا قلنا إن الاشارة عائدة على الاستقسام بالأزلام لعوده على أقرب المذكور وهو قول ابن عباس وهو الراجح واختار الطبري أن الإشارة تعود إلى المحرمات وكل صحيح .

ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ

الدين المرضي الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه﴾ ﴿فمن اضطر في مخمصةٍ غير متجانفٍ لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن ألجأته الضرورة إلى تناول شيء من المحرمات المذكورة ، في مجاعةٍ حال كونه غير مائل إلى الإثم ولا متعمد لذلك ، فإن الله لا يؤ اخذه بأكله ، لأن الضرورات تُبيح المحظورات ﴿يسألونك ماذا أُحل لهم﴾ أي يسألونك يا محمد ما الذي أُحل لهم من المطاعم والمآكل ؟ ﴿قل أحلّ لكم الطيبات﴾ أي قل لهم أُبيح لكم المستلذات وما ليس منها بخبيث ، وحُرّم كل مستقذر كالخنافس والفئران وأشباهها ﴿وما علمتم من الجوارح﴾ أي وأُحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكلاب ونحوها مما يُصطاد به ﴿مكلِّبين﴾ أي مُعلمين للكلاب الاصطياد قال الزمخشري : المكلِّب مؤ دبُ الجوارح ورائضها واشتقاقه من الكَلَب لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب[1] ﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾ أي تعلمونهنَّ طرق الاصطياد وكيفية تحصيل الصيد ، وهذا جزءٌ مما علّمه الله للإنسان ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ أي فكلوا مما أمسكن لكم من الصيد إذا لم تأكل منه ، فإن أكلت فلا يحل أكله لحديث (إذا أرسلتَ كلبَكَ المُعلَّم فقتل فكلْ ، وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسكه على نفسه)[2] وعلامة المعلَّم أن يسترسل إذا أُرسل ، وينزجر إذا زُجر ، وأن يُمسك الصيد فلا يأكل منه ، وأن يذكر اسم الله عند إرساله فهذه أربع شروط لصحة الأكل من صيد الكلب المعلَّم ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ أي عند إرساله ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾ أي راقبوا الله في أعمالكم فإنه سريع المجازاة للعباد ﴿اليوم أحلَّ لكم الطيبات﴾ أي أبيح لكم المستلذات من الذبائح وغيرها ﴿وطعام الذين أُوتوا الكتاب حلٌّ لكم﴾ أي ذبائح اليهود والنصارى حلالٌ لكم ﴿وطعامكم حلٌّ لهم﴾ أي ذبائحكم حلالٌ لهم فلا حرج أن تُطعموهم وتبيعوه لهم ﴿والمحصناتُ من المؤمنات﴾ أي وأُبيح لكم أيها المؤ منون زواج الحرائر العفيفات من المؤ منات ﴿والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي وزواج الحرائر من الكتابيات (يهوديات أو نصرانيات) وهذا رأي الجمهور وقال عطاء : قد أكثر الله المسلمات وإنما رخص لهم يومئذٍ ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أي إذا دفعتم لهن مهورهن ﴿مُحصنين غير مُسافحين﴾ أي حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى ﴿ولا متخذي

(١) الكشاف ١/ ٤٧١ . (٢) أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم .

وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا

أخدان﴾ أي وغير متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن سراً قال الطبري : المعنى ولا منفرداً ببغية قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقةً يفجر بها[1] **﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** أي ومن يرتد عن الدين ويكفر بشرائع الإيمان فقد بطل عمله وهو من الهالكين ، ثم أمر تعالى بإسباغ الوضوء عند الصلاة فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾** أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون **﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾** أي اغسلوا الوجوه والأيدي مع المرافق **﴿وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾** أي امسحوا رءوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين أي معهما قال الزمخشري : وفائدة المجيء بالغاية **﴿إلى الكعبين﴾** لدفع ظن من يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تُضرب له غاية في الشريعة وفي الحديث (ويلٌ للأعقاب من النار)[2] وهذا الحديث يردُّ على الإمامية الذين يقولون بأن الرجلين فرضهما المسحُ لا الغسل ، والآية صريحة لأنها جاءت بالنصب **﴿وأرجلَكُمْ﴾** فهي معطوفة على المغسول وجيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب **﴿وإن كنتم جنباً فاطّهروا﴾** أي إن كنتم في حالة جنابة فتطهروا بغسل جميع البدن **﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾** أي إن كنتم مرضى ويضركم الماء ، أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء **﴿أو جاء أحدٌ منكم من الغائط﴾** أي أتى من مكان البراز **﴿أو لامستم النساء﴾** أي جامعتموهنَّ **﴿فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيباً﴾** أي ولم تجدوا الماء بعد طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتيمم به **﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾** أي امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب بضربتين كما وضّحت السنة النبوية **﴿ما يُريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾** أي ما يُريد بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم تضييقاً عليكم **﴿ولكن يُريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾** أي يطهركم من الذنوب وأدناس الخطايا بالوضوء والتيمم ، وليتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام ولتشكروه على نعمه التي لا تحصى **﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾** الخطاب للمؤمنين والنعمةُ هنا الإسلام وما صاروا إليه من اجتماع الكلمة والعزة أي اذكروا يا أيها المؤمنون نعمة الله العظمى عليكم بالإسلام وعهده الذي عاهدكم

---

(١) الطبري ٩/ ٥٩٠ .

(٢) الكشاف ١/ ٤٧٤ .

﴿وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝﴾

عليه رسوله حين بايعتموه على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره **﴿واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾** أي اتقوا الله فإنه عالم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله﴾** أي كونوا مبالغين في الإستقامة بشهادتكم لله وصيغة قوّام للمبالغة **﴿شهداء بالقسط﴾** أي تشهدون بالعدل **﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا﴾** أي لا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم **﴿إعدلوا هو أقرب للتقوى﴾** أي العدل مع من تبغضونهم أقرب لتقواكم لله **﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾** أي مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها قال الزمخشري : وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله وكان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه"[1] ؟ ! **﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** أي وعد الله المؤمنين المطيعين **﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾** أي لهم في الآخرة مغفرة للذنوب وثواب عظيم وهو الجنة **﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾** لما ذكر مآل المؤمنين المتقين وعاقبتهم ذكر مآل الكافرين المجرمين وأنهم في دركات الجحيم دائمون في العذاب قال أبو حيان : وقد جاءت الجملة فعلية بالنسبة للمؤمنين متضمنة الوعد بالماضي الذي هو الدليل على الوقوع ، وفي الكافرين جاءت الجملة إسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم وأنهم أصحاب النار فهم دائمون في عذاب الجحيم[2] .

* * *

البَـلاَغَـة : ١ - **﴿لا تحلوا شعائر الله﴾** فيه استعارة استعار الشعيرة وهي العلامة للمتعبدات التي تعبَّد الله بها العباد من الحلال والحرام .

٢ - **﴿ولا القلائد﴾** أي ذوات القلائد وهي من باب عطف الخاص على العام لأنها أشرف الهدي كقوله **﴿من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال﴾** .

٣ - **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾** فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

---

(١) الكشاف ١/٤٧٦ . (٢) البحر ٣/٤٤١ .

٤ ـ ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾ أطلق العام وأراد به الخاص وهو الذبائح .

٥ ـ ﴿محصنين غير مسافحين﴾ بينهما طباق لأن معنى محصنين أي أعفاء ومسافحين أي زناة .

٦ ـ ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة فعبّر عن إرادة الفعل بالفعل وأقام المسبَّب مقام السبب للملابسة بينهما[١] ، وفي الآية إيجاز بالحذف أيضاً أي إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون .

الفَوَائِـد : الأولى : يحكى أن أصحاب الكِنْدِيّ ـ الفيلسوف ـ قال له أصحابه : أيها الحكيم إعمل لنا مثل هذا القرآن فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إني فتحتُ المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث ، وحلّل تحليلاً عامّاً ، ثم استثنى استثناءً ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحدٌ أن يأتي بهذا إلا في مجلدات[٢] .

الثانية : جرت سنة الجاهلية على مبدأ العصبية العمياء الذي عبّر عنه الشاعر الجاهلي بقوله :

وهل أنا إلا من غُزيّة إن غوتْ غويتُ وأن ترشد غُزية أرشد

وجاء الإسلام بهذا المبدأ الإنساني الكريم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ وشتّان بين المبدأين .

الثالثة : روي أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين : آيةٌ في كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ! قال أيُّ آية تعني ؟ قال ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم﴾ الآية فقال عمر : والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ فيه ، والساعة التي نزلت فيها ، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة[٣] .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم . . . إلى . . فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ من آية (١١) إلى نهاية آية (٢٦) .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة من الأحكام ، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام ، ذكر هنا نعمته عليهم بالهداية إلى الإسلام ودفع الشرور عنهم والآثام ، ثم أعقبه ببيان نعمته تعالى على أهل الكتاب « اليهود والنصارى » وأخذه العهد والميثاق عليهم ولكنهم نقضوا العهد فألزمهم الله العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، ثم دعا الفريقين إلى الاهتداء بنور القرآن ، والتمسك بشريعة خاتم المرسلين ، وترك ما هم عليه من ضلالات وأوهام .

(١) أفاده الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٧٣ . (٢) القرطبي ٦/ ٣١ . (٣) أخرجه الشيخان .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ * وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ

اللغــة : ﴿نقيباً﴾ النقيب : كبير القوم الذي يبحث عن أحوالهم ومصالحهم فهو كالكفيل عن الجماعة ﴿وعزَّرتموهم﴾ التعزير : التعظيم والتوقير ﴿سواء السبيل﴾ قصد الطريق ووسطه ﴿قاسية﴾ صلبة لا تعي خيراً والقاسية والعاتية بمعنى واحد ﴿خائنة﴾ خيانة ويجوز أن يكون صفة للخائن كما يقال : رجل طاغية وراوية للحديث ﴿فأغرينا﴾ هيجنا وألزمنا مأخوذٌ من الغِراء ، وغَرِي بالشيء إذا لصق به ﴿فترة﴾ انقطاع ﴿يتيهون﴾ التيه : الحيرة والضياع .

سَبَبُ النّزول : أراد بنو النضير أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى وأن يغدروا به وبأصحابه فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم . .﴾[1] الآية .

التفسِير : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بحفظه إياكم من أعدائكم ﴿إذ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ أي يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك ﴿فكفَّ أيديهم عنكم﴾ أي عصمكم من شرهم وردَّ أذاهم عنكم ﴿واتقوا الله﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي فليثقْ المؤمنون بالله فإنه كافيهم وناصرهم ، ثم ذكر تعالى أحوال اليهود وما تنطوي عليه نفوسهم من الخيانة ونقض الميثاق فقال ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي عهدهم المؤكد باليمين ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي وأمرنا موسى بأن يأخذ اثني عشر نقيباً - والنقيبُ كبير القوم القائم بأمورهم - من كل سبطٍ نقيبٌ يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بالعهد توثقةً عليهم قال الزمخشري : لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالسير إلى «أريحاء» بأرض الشام كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال لهم : إني كتبتها لكم داراً وقراراً فجاهدوا من فيها فإني ناصركم ، وأمر موسى بأن يأخذ من كل سِبْطٍ نقيباً فاختار النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعثهم يتجسّسون الأخبار فرأوا قوماً أجسَامهم عظيمة ولهم قوةٌ وشوكة فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم وكان موسى قد نهاهم أن يتحدثوا بما يرون فنكثوا الميثاق وتحدثوا إلا إثنين منهم[2] ﴿وقال الله إني معكم﴾ أي ناصركم ومعينكم ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة﴾ اللام للقسم أي وأقسم لكم يا بني إسرائيل لئن أديتم ما فرضتُ عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وآمنتم برسلي وعزرتموهم﴾ أي وصدقتم برسلي ونصرتموهم ومنعتموهم من الأعداء ﴿وأقرضتم اللهَ قرضاً حسناً﴾ أي بالإنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله ﴿لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم﴾ أي لأمحونَّ عنكم ذنوبكم ، وهذا

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٩٦ . (٢) الكشاف ١/ ٤٧٨ .

ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

جواب القسم قال البيضاوي : وقد سدَّ مسدَّ جواب الشرط[١] ﴿ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾ أي من كفر بعد ذلك الميثاق ، فقد أخطأ الطريق السويّ وضلّ ضلالاً لا شبهة فيه ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق طردناهم من رحمتنا ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي جافة جافية لا تلين لقبول الايمان[٢] ﴿يحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه﴾ قال ابن كثير : تأولوا كتابه ـ التوراة ـ على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا على الله ما لم يقلْ[٣] ، ولا جُرْم أعظمُ من الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل ﴿ونسوا حظاً مما ذُكّروا به﴾ أي تركوا نصيباً وافياً مما أُمروا به في التوراة ﴿ولا تزال تطّلع على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم﴾ أي لا تزال يا محمد تظهر على خيانةٍ منهم بنقض العهود وتدبير المكايد ، فالغدرُ والخيانة عادتُهم وعادةُ أسلافهم إلا قليلاً منهم ممن أسلم ﴿فاعفُ عنهم واصفحْ إن الله يحب المحسنين﴾ أي لا تعاقبهم واصفح عمن أساء منهم ، وهذا منسوخ بآية السيف والجزية كما قال الجمهور ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ أي ومن الذين ادعوا أنهم أنصار الله وسمّوا أنفسهم بذلك أخذنا منهم أيضاً الميثاق على توحيد الله والإيمان بمحمد رسول الله ﴿فنسوا حظاً مما ذُكّروا به﴾ أي فتركوا ما أُمروا به في الإنجيل من الايمان بالأنبياء ونقضوا الميثاق ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي ألزمنا وألصقنا بين فِرَق النصارى العداوة والبغضاء إلى قيام الساعة قال ابن كثير : ولا يزالون متباغضين متعادين ، يكفِّر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وكل فرقةٍ تمنع الأخرى دخول معبدها[٤] . . وهكذا نجد الأمم الغربية ـ وهم أبناء دين واحد ـ يتفنّن بعضهم في إهلاك بعض ، فمن مخترعٍ للقنبلة الذرية إلى مخترع للقنبلة الهيدروجينية وهي مواد مدمِّرة لا يمكن أن يتصور العقل ما تحدثه من تلفٍ بالغ وهلاك شامل ﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ ثم قال تعالى ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾

---

(١) البيضاوي ص ١٤٧ قال ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرطٍ وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

(٢) هذا قول ابن عباس كما في البحر . (٣) مختصر ابن كثير ١/٤٩٧ . (٤) مختصر ابن كثير ١/٤٩٨ .

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

تهديد لهم أي سيلقون جزاء عملهم القبيح ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ الخطاب لليهود والنصارى أي يا معشر أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبيّن لكم الكثير مما كنتم تكتمونه في كتابكم من الايمان به ، ومن آية الرجم ، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة وغير ذلك مما كنتم تخفونه ﴿ويعفو عن كثير﴾ أي يتركه ولا يبيّنه وإنما يبيّن لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادة على صدقه ، ولو ذكر كل شيء لفضحكم قال في التسهيل : وفي الآية دليل على صحة نبوته لأنه بيّن ما أخفوه في كتبهم وهو أميٌّ لم يقرأ كتبهم[١] ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ أي جاءكم نور هو القرآن لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام﴾ أي يهدي بالقرآن من اتبع رضا الله طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾ أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته ﴿ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾ هو دين الإسلام ، ثم ذكر تعالى إفراط النصارى في حق عيسى حيث اعتقدوا ألوهيته فقال ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ أي جعلوه إلهاً وهم فرقةٌ من النصارى زعموا أن الله حلَّ في عيسى ولهذا نجد في كتبهم «وجاء الرب يسوع» وأمثاله ، ويسوع عندهم هو عيسى[٢] ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ أي قل لهم يا محمد لقد كذبتم فمن الذي يستطيع أن يدفع عذاب الله لو أراد أن يهلك المسيح وأمه وأهل الأرض جميعاً ؟ فعيسى عبد مقهور قابلٌ للفناء كسائر المخلوقات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ولو كان إلهاً لقدر على تخليص نفسه من الموت ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي من الخلق والعجائب ﴿يخلق ما يشاء﴾ أي هو قادر على أن يخلق ما يريد ولذلك خلق عيسى من غير أب ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي لا يعجزه شيء ، ثم

---

(١) التسهيل ١٧٢/١ . (٢) قال أبو حيان : ذكر سبحانه أن من النصارى من قال إن المسيح هو الله ، ومنهم من قال هو ابن الله ، ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة ، ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من تستّر بالإسلام ظاهراً وانتمى إلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بـ « الاتحاد والوحدة » كالحلاج والصفّار وابن اللبّاج وأمثالهم وإنما ذكرتهم نصحاً لدين الله وقد أولع جهلة من ينتمي إلى التصوف بتعظيم هؤلاء وادعائهم أنهم صفوة الله وأولياؤه ، البحر المحيط ٤٤٨/٣ .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ

حكى عن اليهود والنصارى افتراءهم فقال ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾ أي نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء ونحن أحباؤه لأننا على دينه قال ابن كثير : أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا[١] ﴿**قل فلم يعذبكم بذنوبكم**﴾ ؟ أي لو كنتم كما تدَّعون أبناءه وأحباءه فلم أعدَّ لكم نار جهنم على كفركم وافترائكم ؟ ﴿**بل أنتم بشرٌ ممن خلق**﴾ أي أنتم بشر كسائر الناس وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿**يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾ أي يغفر لمن شاء من عباده ويعذب من شاء لا اعتراض لحكمه ولا رادَّ لأمره ﴿**ولله ملك السمٰوات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإليه المرجع والمآب ، ثم دعاهم إلى الإيمان بخاتم المرسلين فقال ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيِّن لكم على فترةٍ من الرسل**﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لقد جاءكم محمد ﷺ يوضِّح لكم شرائع الدين على انقطاع من الرسلِ ودروسٍ من الدين ، وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ومدتها خمسمائة وستون سنة لم يُبعث فيها رسول ﴿**أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير**﴾ أي لئلا تحتجوا وتقولوا : ما جاءنا من رسولٍ يبشر بالخير وينذر من الشر ﴿**فقد جاءكم بشير ونذير**﴾ هو محمد ﷺ ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ قال ابن جرير : أي قادرٌ على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه ، ثم ذكر تعالى ما عليه اليهود من العناد والجحود فقال ﴿**وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لبني إسرائيل يا قوم تذكّروا نعمة الله العظمى عليكم واشكروه عليها ﴿**إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً**﴾ أي حين بعث فيكم الأنبياء يرشدونكم إلى معالم الدين وجعلكم تعيشون كالملوك لا يغلبكم غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين فأنقذكم منه بإغراقه قال البيضاوي : لم يُبعث في أمةٍ ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء[٢] ﴿**وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين**﴾ أي من أنواع الإنعام والإكرام من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى ونحوها ﴿**يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم**﴾ قال البيضاوي : هي أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين[٣] ومعنى ﴿**التي كتب الله لكم**﴾

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٩٩ . (٢) البيضاوي ص ١٤٨ . (٣) البيضاوي ص ١٤٨ .

لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

أي التي وعدكموها على لسان أبيكم اسرائيل وقضى أن تكون لكم **﴿ولا ترتدوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾** أي ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة قال في التسهيل : روي أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها وهمّوا أن يرجعوا إلى مصر[1] **﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين﴾** أى عظام الأجسام طوال القامة لا قدرة لنا على قتالهم وهم العمالقة من بقايا عاد **﴿وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾** أي لن ندخلها حتى يسلّموها لنا من غير قتال **﴿فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾** أي لا يمكننا الدخول ما داموا فيها فإن خرجوا منها دخلناها **﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما﴾** أي فلما جبنوا حرضهم رجلان من النقباء ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه وفيهما الصلاح واليقين **﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾** أي قالا لهم لا يهولنكم عِظَم أجسامهم ، فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فإذا دخلتم عليهم باب المدينة غلبتموهم بإذن الله **﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾** أي اعتمدوا على الله فإنه ناصركم إن كنتم حقاً مؤمنين **﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنتَ وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾** وهذا إفراط في العصيان ومع سوء الأدب بعبارةٍ تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله ، وأين هؤلاء من الصحابة الأبرار الذين قالوا لرسول الله ﷺ : لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون ؟ ! **﴿قال ربِّ إنـي لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾** أي قال موسى حينذاك معتذراً إلى الله متبرءاً من مقالة السفهاء : يا ربِّ لا أملك قومي ، لا أملك إلا نفسي وأخي هارون فافصل بيننا وبين الخارجين عن طاعتك بحكمك العادل **﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾** استجاب الله دعاءه وعاقبهم في التّيه أربعين سنة والمعنى : قال الله لموسى إن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها مدة أربعين سنة يتيهون في الأرض ولا يهتدون إلى الخروج منها **﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾** أي لا تحزن عليهم فإنهم فاسقون مستحقون

(١) التسهيل ١٧٣/١ .

للعقاب قال في التسهيل : روي أنهم كانوا يسيرون الليل كله فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه[1] .

البَــلاَغَــة : ١ ـ ﴿أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ بسط الأيدي كناية عن البطش والفتك ، وكف الأيدي كناية عن المنع والحبس .

٢ ـ ﴿وبعثنا منهم﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى المتكلم ومقتضى الظاهر وبعث وإنما التفت اعتناءً بشأنه .

٣ ـ ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ فيه استعارة استعار الظلمات للكفر والنور للإيمان .

٤ ـ ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ فيه تشبيه بليغ أي كالملوك في رغد العيش وراحة البال فحذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٥ ـ الطباق بين ﴿يغفر . . ويعذب﴾ .

٦ ـ ﴿أنعم الله عليهما﴾ جملة اعتراضية لبيان فضل الله على عباده الصالحين .

الفَــوَائِــد : الأولى : إنما سميت الأرض المقدسة أي المطهرة لسكنى الأنبياء المطهرين فيها فشرفت وطهرت بهم فالظرف طاب بالمظروف .

الثانية : قال بعض العارفين لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فسكت ولم يردّ عليه فتلا عليه هذه الآية ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ ففي الآية دليل على أن المحب لا يعذب حبيبه ذكره ابن كثير .

* * *

قال الله تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق . . . إلى . . ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير﴾ من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٤٠) .

المُنَاسَبَة : لمّا ذكر تعالى تمرد بني إسرائيل وعصيانهم لأمر الله في قتال الجبارين ، ذكر قصة ابني آدم وعصيان « قابيل » أمر الله وإقدامه على قتل النفس البريئة التي حرمها الله ، فاليهود اقتفوا في العصيان أوَّل عاصٍ لله في الأرض ، فطبيعةُ الشر فيهم مستقاةٌ من ولد آدم الأول ، فاشتبهت القصتان من حيث التمرد والعصيان ، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطّاع الطريق والسرّاق الخارجين على أمن الدولة والمفسدين في الأرض .

اللغَــة : ﴿قرباناً﴾ القُربان ما يُتقرب به إلى الله ﴿تبوء﴾ ترجع يقال : باء إذا رجع إلى المباءة

(١) التسهيل ١/ ١٧٤

* ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ﴾

وهي المنزل ﴿فطوّعت﴾ سوّلت وسهّلت يقال : طاع الشيءُ إذا سهل وانقاد وطوّعه له أي سهّله ﴿يبحث﴾ يفتش وينقّب ﴿سوأة﴾ السوأة : العورة ﴿يا ويلتا﴾ كلمة تحسر وتلهف قال سيبويه : كلمةٌ تقال عند الهلكة ﴿ينفوا﴾ نفاه : طرده وأصله الإهلاك ومنه النّفاية لرديء المتاع ﴿خزي﴾ الخزي : الفضيحة والذل يقال أخزاه الله أي فضحه وأذله ﴿الوسيلة﴾ كل ما يتوسل به إلى الله ﴿نكالاً﴾ عقوبة .

سَبَبُ النّزول : عن أنس أن رهطاً من عُرينة قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا المدينة ـ استوخموها ـ فبعثهم رسول الله ﷺ إلى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها ، فلما صحُّوا قتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا النَّعَم فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسُمِرت أعينهم وألقوا في الحرة حتى ماتوا فنزلت ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله . .﴾[1] الآية .

التفسير : ﴿واتلُ عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾ أي اقرأ يا محمد على هؤلاء الحسدة من اليهود وأشباههم خبر « قابيل وهابيل » ابنيْ آدم ملتبسةً بالحق والصِّدق وذكّرهم بهذه القصة فهي قصة حق ﴿إذ قرّبا قرباناً فتُقبّل من أحدهما ولم يُتَقبَّل من الآخر﴾ أي حين قرَّب كلٌ منهما قرباناً فتُقبل من هابيل ولم يُتقبل من قابيل قال المفسرون : سبب هذا القربان أن حوّاء كانت تلد في كل بطنٍ ذكراً وأنثى وكان يزوّج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر فلما أراد آدم أن يزوّج قابيلَ أخت هابيل ويزوّج هابيل أخت قابيل رضي هابيل وأبى قابيل لأن توأمته كانت أجمل فقال لهما آدم : قرّبا قرباناً فمن أيكما تُقبل تزوجها ، وكان قابيل صاحب زرع فقرّب أرذل زرعه وكان هابيل صاحب غنم فقرّب أحسن كبشٍ عنده فقبل قربانُ هابيل بأن نزلت نارٌ فأكلته فازداد قابيل حسداً وسخطاً وتوعّده بالقتل[2] ﴿قال لأقتلنك﴾ أي قال قابيل لأخيه هابيل لأقتلنك قال : لمَ ؟ قال لأنه تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني قال : وما ذنبي ؟ ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ أي إنما يتقبل ممن اتقى ربه وأخلص نيته قال البيضاوي : توعّده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه فأجابه بأنك أُتيت من قِبَل نفسك بترك التقوى لا من قِبَلي وفيه إشارة إلى أن الطاعة لا تُقبل إلا من مؤمن متّقٍ لله[3] ﴿لئن بسطتَ إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يديَ إليكَ لأقتلك﴾ أي لئن مددتَ إليَّ يدك ظلماً لأجل قتلي ما كنتُ لأقابلك بالمثل قال ابن عباس المعنى : ما أنا بمنتصر لنفسي ﴿إني أخاف الله ربَّ العالمين﴾ أي لا أمدُّ يدي إليك لأني أخاف ربَّ العالمين قال الزمخشري : قيل : كان هابيل أقوى من القاتل ولكنه تحرّج عن قتل أخيه خوفاً من الله[4] ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار﴾ أي إن قتلتني فذاك أحبُّ إليَّ من أن أقتلك قال أبو حيان : المعنى إن سبق

(١) القرطبي ٦/١٤٨ . (٢) الكشاف ١/٤٨٤ والقرطبي ٦/١٣٤ . (٣) البيضاوي ص ١٤٩ . (٤) الكشاف ١/٤٨٥ .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾

بذلك قَدَرٌ فاختياري أن أكون مظلوماً ينتصر الله لي لا ظالماً[١] وقال ابن عباس : المعنى لا أبدؤك بالقتل لترجع بإثم قتلي إن قتلتني ، وإثمك الذي كان منك قبل قتلي فتصير من أهل النار ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ أي عقاب من تعدّى وعصى أمر الله ﴿فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ أي زيّنت له نفسه وسهّلت له قتل أخيه فقتله فخسر وشقي قال ابن عباس : خوّفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه﴾ أي أرسل الله غراباً يحفر بمنقاره ورجله الأرض ليُرِي القاتل كيف يستر جسد أخيه قال مجاهد : بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر له فدفنه ، وكان ابن آدم هذا أول من قُتِل ، وروي أنه لما قتله تركه بالعراء ولم يدر كيف يدفنه حتى رأى الغراب يدفن صاحبه فلما رآه قال ﴿يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي﴾ أي قال قابيل متحسراً يا ويلي ويا هلاكي أضعفتُ أن أكون مثل هذا الطير فأستر جسد أخي في التراب كما فعل هذا الغراب ؟ ﴿فأصبح من النادمين﴾ أي صار نادماً على عدم الاهتداء إلى دفن أخيه لا على قتله قال ابن عباس : ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبةً له[٢] ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض﴾ أي من أجل حادثة « قابيل وهابيل » وبسبب قتله لأخيه ظلماً فرضنا وحكمنا على بني إسرائيل أن من قتل منهم نفساً ظلماً بغير أن يقتل نفساً فيستحق القصاص وبغير فسادٍ يوجب إهدار الدم كالردّة وقطع الطريق ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ أي فكأنه قتل جميع الناس قال البيضاوي : من حيث انه هتك حرمة الدماء وسنَّ القتل وجرأ الناس عليه ، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها[٣] ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ أي ومن تسبَّب لبقاء حياتها واستنقذها من الهَلَكة فكأنه أحيا جميع الناس قال ابن عباس في تفسير الآية : من قتل نفساً واحدةً حرّمها الله فهو مثلُ من قتل الناس جميعاً ومن امتنع عن قتل نفسٍ حرمها الله وصان حرمتها خوفاً من الله فهو كمن أحيا الناس جميعاً[٤] ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ أي بعدما كتبنا على بني إسرائيل هذا التشديد العظيم وجاءتهم رسلنا بالمعجزات الساطعات والآيات الواضحات ﴿ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في

(١) البحر ٣/٤٦٣ . (٢) القرطبي ٦/١٤٢ . (٣) البيضاوي ص ١٥١ . (٤) مختصر ابن كثير ١/٥٠٩ .

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٌ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

الأرض لمسرفون﴾ أي ثم إنهم بعد تلك الزواجر كلها يسرفون في القتل ولا يبالون بعظمته قال ابن كثير : هذا تقريعٌ لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها وقال الرازي : إن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى ، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول ﷺ لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود[١] ، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطّاع الطريق فقال **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾** أي يحاربون شريعة الله ودينه وأولياءه ويحاربون رسوله **﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾** أي يفسدون في الأرض بالمعاصي وسفك الدماء **﴿أن يُقتَّلوا﴾** أي يُقتلوا جزاء بغيهم **﴿أو يُصلَّبوا﴾** أي يُقتلوا ويُصلبوا زجراً لغيرهم ، والصيغةُ للتكثير **﴿أو تُقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾** معناه أن تُقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى **﴿أو يُنفوا من الأرض﴾** أي يُطردوا ويُبعدوا من بلدٍ إلى بلد آخر[٢] **﴿ذلك لهم خزيٌ في الدنيا﴾** أي ذلك الجزاء المذكور ذلٌ لهم وفضيحة في الدنيا **﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾** هو عذاب النار ، قال بعض العلماء : الإمام بالخيار إن شاء قتل ، وإن شاء صلب ، وإن شاء قطع الأيدي والأرجل ، وإن شاء نفى وهو مذهب مالك .

وقال ابن عباس : لكلِّ رتبةٍ من الحِرَابة رتبةٌ من العقاب فمن قَتَل قُتل ، ومن قتل وأخذ المال قُتل وصُلب ، ومن اقتصر على أخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف ، ومن أخاف فقط نُفي من الأرض ، وهذا قول الجمهور[٣] **﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾** أي لكن الذين تابوا من المحاربين وقُطّاع الطريق قبل القدرة على أخذهم وعقوبتهم **﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾** أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب يقبل توبته ويغفر زلّته ، ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى والعمل الصالح فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾** أي خافوا عقابه واطلبوا ما يقربكم إليه من طاعته وعبادته قال قتادة : تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه **﴿وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾** أي جاهدوا لإعلاء دينه لتفوزوا بنعيم الأبد **﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾** أي لو كان لكل كافر جميع ما في الأرض من خيرات وأموال ومثله معه **﴿ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم**

(١) التفسير الكبير ١١/ ٢١١ . (٢) قال الشافعي : النفي من بلدٍ إلى بلد لا يزال يطلب وهو هاربٌ فزعاً وقال أبو حنيفة : النفيُ السجنُ واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه . (٣) الفخر الرازي ١١/ ٢١٥ .

﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

ولهم عذاب أليم﴾ أي وأراد أن يفتدي بها نفسه من عذاب الله ما نفعه ذلك وله عذاب مؤلم موجع ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾ أي دائم لا ينقطع وفي الحديث (يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيتَ لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنتَ تفتدي به ؟ فيقول نعم فيقال له : قد كنتَ سُئلتَ ما هو أيسرُ من ذلك ألاّ تشرك بي فأبيت فيؤمر به إلى النار)[١] ثم ذكر تعالى عقوبة السارق فقال ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ أي كل من سرق رجلاً كان أو امرأة فاقطعوا يده ﴿جزاءً بما كسبا﴾ أي مجازاة لهما على فعلهما القبيح ﴿نكالاً من الله﴾ أي عقوبة من الله ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي حكيم في شرعه فلا يأمر بقطع اليد ظلماً ﴿فمن تاب من بعد ظلمه﴾ أي رجع عن السرقة ﴿وأصلح﴾ أي أصلح سيرته وعمله ﴿فإن الله يتوب عليه﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة ، ثم نبّه تعالى على واسع ملكه وأنه لا معقّب لحكمه فقال ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر والملك الباهر وبيده ملكوت السموات والأرض والاستفهام للتقرير ﴿يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي يعذّب من يشاء تعذيبه ويغفر لمن يشاء غفران ذنبه وهو القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء .

البَلاَغَة : ١ ـ الطباق بين كلمة ﴿قتل . . وأحيا﴾ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين ﴿يعذب . . ويغفر﴾ .

٢ ـ ﴿يحاربون الله﴾ هو على حذف مضاف أي يحاربون أولياء الله لأن الله لا يُحارب ولا يُغالب فالكلام على سبيل المجاز .

٣ ـ الاستعارة ﴿ومن أحياها﴾ لأن المراد استبقاها ولم يتعرض لقتلها ، وإحياء النفس بعد موتها لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

٤ ـ ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به﴾ قال الزمخشري : هذا تمثيلٌ للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجهٍ من الوجوه[٢] .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق . (٢) الكشاف ١/ ٤٨٨ .

٥ ـ طباق السلب ﴿لئن بسطت . . ما أنا بباسط يدي﴾ .

الفـوائـد : الأولى : النفي من الأرض كما يكون بالطرد والإبعاد يكون بالحبس ولهذا قال مالك رحمه الله : النفيُ : السجنُ ينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها قال الشاعر وهو في السجن :

خرجنا عن الدنيا وعَن وصـل أهلها فلسنـا من الأحيا ولسنـا من الموتى
إذا جاءنـا السّجـان يومـاً لحاجةٍ عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا[٢]

الثانية : السرُّ في تقديم السارق على السارقة هنا وتقديم الزانية على الزاني في قوله ﴿الزانية والزاني فاجلدوا﴾ أن الرجل على السرقة أجرأ ، والزنى من المرأة أشنع وأقبح فناسب ذكر كلٍ منهما المقام .

الثالثة : قال الأصمعي : قرأتُ يوماً هذه الآية ﴿والسارق والسارقة﴾ وإلى جنبي أعرابي فقلت ﴿والله غفور رحيم﴾ سهواً فقال الأعرابي : كلامُ من هذا ؟ قلت : كلام الله قال : ليس هذا بكلام الله أعِدْ فأعدت وتنبهتُ فقلت ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال : نعم هذا كلام الله فقلت : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا قلت : فمن أين علمتَ أني أخطأتُ ؟ فقال يا هذا : عزَّ فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع[٣] .

الرابعة : اعترض بعض الملحدين على الشريعة الغراء في قطع يد السارق بالقليل من المال ونظم ذلك شعراً فقال :

يدٌ بخمسِ مئـين عسجـدٍ وُديتْ مـا بالُهـا قُطعـتْ في رُبْـع دينار ؟
تحـكّمٌ مالنـا إلا السـكوتُ له وأن نعـوذَ بمولانـا من النّار

فأجابه بعض العلماء بقوله :

عزُّ الأمانـة أغلاهـا وأرخصَها ذلُّ الخيانةِ فافهم حكمـةَ البـاري

أي لمّا كانت أمينة كانت ثمينة ، فلما خانت هانت ، ويا له من قول سديد .

« كلمة وجيزة حول قطع يد السارق »

يعيب بعض الغربيين على الشريعة الإسلامية قطع يد السارق ويزعمون أن هذه العقوبة صارمة لا تليق بمجتمع متحضر ويقولون : يكفي في عقوبته السجن ردعاً له ، وكان من أثر هذه الفلسفة التي لا تستند على منطقٍ سليم أن زادت الجرائم وكثرت العصابات وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطريق الذين يهدّدون الأمن والاستقرار ، يسرق السارق وهو آمن مطمئن لا يخشى شيئاً اللهم إلا ذلك السجن الذي يُطعم ويُكسى فيه فيقضي مدة العقوبة التي فرضها عليه القانون الوضعي ثم يخرج منه وهو إلى الإجرام أميل وعلى الشر أقدر ، يؤكد هذا ما نقرؤه ونسمعه عن تعداد الجرائم وزيادتها يوماً بعد يوم ،

(١) الفخر الرازي ١١/٢١٦ . (٢) زاد المسير لابن الجوزي ٢/٣٥٤ .

وذلك لقصور العقل البشري عن الوصول إلى الدواء الناجع والشفاء النافع لمعالجة مثل هذه الأمراض الخطيرة ، أما الإسلام فقد استطاع أن يقتلع الشر من جذوره ويدٌ واحدة تقطع كافية لردع المجرمين فيا له من تشريع حكيم ! !

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر . . إلى . . ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٥٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة ابني آدم وإقدام الأخ على قتل أخيه بسبب البغي والحسد وذكر أحكام الحرابة والسرقة ، أعقبه بذكر أمر المنافقين وأمر اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وتربصهم به وبأصحابه الدوائر ، وأمر رسوله ﷺ ألا يحزن لما يناله من أذى من أعداء الإنسانية فالله سيعصمه من شرهم ، وينجيه من مكرهم ، ثم ذكر ما أنزل الله من أحكام نورانية في شريعة التوراة .

اللغة : ﴿يحزنك﴾ الحُزْن والحَزَن خلاف السرور ﴿السحت﴾ : الحرام سمي بذلك لأنه يسحتُ الطاعات أي يذهبها ويستأصلها وأصل السحت : الهلاك قال تعالى ﴿فيُسحِتكم بعذاب﴾ أي يستأصلكم ويهلككم ﴿الأحبار﴾ جمع حَبْر وهو العالم مأخوذ من التحبير وهو التحسين ﴿وقفينا﴾ أتبعنا ﴿مهيمناً﴾ المهيمن : الرقيب على الشيء الحافظ له ، من هيمن عليه أي راقبه ويأتي بمعنى العالي والمرتفع على الشيء[١] ﴿شرعة﴾ الشِّرعة : السُّنَّة والطريقة يقال : شرع لهم أي سنَّ لهم ﴿منهاجاً﴾ المنهاج : الطريق الواضح

سبب النزول : عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّماً مجلوداً فدعاهم فقال : هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا نعم فدعا رجلاً من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا : تعالوا فلنجتمعْ على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم فأنزل الله ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ إلى قوله ﴿إن أوتيتم هذا فخذوه﴾ يقولون : ائتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا[٢] .

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ

التفسير : ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ الخطاب للرسول ﷺ على وجه التسلية أي لا تتأثر يا محمد ولا تحزن لصنيع الذين يتسابقون نحو الكفر ويقعون فيه بسرعة ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ أي من المنافقين الذين لم يُجاوز الإيمان أفواههم يقولون

(١) القرطبي ٦/ ٢١٠ . (٢) رواه مسلم .

وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا

بألسنتهم آمنا وقلوبهم كافرة ﴿ومن الذين هادوا﴾ أي ومن اليهود ﴿سمّاعون للكذب﴾ أي هم مبالغون في سماع الأكاذيب والأباطيل وفي قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله وتحريف كتابه ﴿سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي مبالغون في قبول كلام قوم آخرين لم يحضروا مجلسك تكبراً وإفراطاً في العداوة والبغضاء وهم يهود خيبر ، والسماعون للكذب بنو قريظة ﴿يحرّفون الكلم من بعد مواضعه﴾ أي يُزيلونه ويُميلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها والمراد تحريف أحكام الله وتغييرها بأحكام أخرى قال ابن عباس : هي حدود الله في التوراة غيروا الرجم بالجلد والتحميم[1] - يعني تسويد الوجه - ﴿يقولون إن أُوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤْتوه فاحذروا﴾ أي إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا قال تعالى ردّاً عليهم ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ أي ومن يرد الله كفره وضلالته فلن يقدر أحدٌ على دفع ذلك عنه ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم﴾ أي لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم من رجس الكفر وخبث الضلالة لقبح صنيعهم وسوء اختيارهم ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أي ذلٌ وفضيحة ﴿ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم﴾ هو الخلود في نار جهنم قال أبو حيان : والآية جاءت تسلية للرسول ﷺ وتخفيفاً عنه من ثقل حزنه على مسارعتهم في الكفر وقطعاً لرجائه من فلاحهم[2] ﴿سمّاعون للكذب﴾ أي الباطل كرره تأكيداً وتفخيماً ﴿أكّالون للسحت﴾ أي الحرام من الرشوة والربا وشبه ذلك ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرضْ عنهم﴾ أي إن تحاكموا إليك يا محمد فيما شجر بينهم من الخصومات فأنت مخير بين أن تحكم بينهم وبين أن تُعرض عنهم قال ابن كثير : أي إن جاءوك يتحاكمون إليك فلا عليك ألا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم[3] ﴿وإنْ تُعْرضْ عنهم فلن يضروك شيئاً﴾ أي لأن الله عاصمك وحافظك من الناس ﴿وإن حكمتَ فاحكمْ بينهم بالقِسْط إن الله يحبُّ المقسطين﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل والحق وإن كانوا ظلمةً خارجين عن طريق العدل لأن الله يحب العادلين ، ثم قال تعالى منكراً عليهم مخالفتهم لأحكام التوراة ﴿وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ أي كيف يحكّمك يا محمد هؤلاء اليهود ويرضون بحكمك

(١) البحر ٣/ ٤٨٨ . (٢) البحر ٣/ ٤٨٨ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٥١٩ .

حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ

وعندهم التوراة فيها حكم الله يرونه ولا يعملون به ؟ قال الرازي : هذا تعجيبٌ من الله تعالى لنبيهﷺ بتحكيم اليهود إيّاه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني ثم تركهم قبول ذلك الحكم ، فعدلوا عما يعتقدونه حكماً حقاً إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة فظهر بذلك جهلهم وعنادهم[١] ﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ أي يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد أن وضح لهم الحق وبان ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ أي ليسوا بمؤمنين لأنهم لا يؤمنون بكتابهم « التوراة » لإعراضهم عنه وعن حكمك الموافق لما فيه قال في التسهيل : وهذا إلزامٌ لهم لأن من خالف كتاب الله وبدّله فدعواه الإيمان باطلة[٢] ، ثم مدح تعالى التوراة بأنها نور وضياء فقال ﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ أي أنزلنا التوراة على موسى فيها بيانٌ واضح ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿يحكم بها النبيّون الذين أسلموا﴾ أي يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله ﴿للذين هادوا﴾ أي يحكمون بالتوراة لليهود لا يخرجون عن حكمها ولا يُبدّلونها ولا يُحرّفونها ﴿والربّانيون والأحبار﴾ أي العلماء منهم والفقهاء ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ أي بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ أي رقباء لئلا يُبدّل ويُغيّر ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ أي لا تخافوا يا علماء اليهود الناس في إظهار ما عندكم من نعت محمدﷺ والرجم بل خافوا مني في كتمان ذلك ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي حطام الدنيا الفاني من الرشوة والجاه والعَرَض الخسيس ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ أي من لم يحكم بشرع الله كائناً من كان فقد كفر وقال الزمخشري : ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون وصفٌ لهم بالعتوّ في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمرّدوا بأن حكموا بغيرها[٣] قال أبو حيان : والآية وإن كان الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم[٤] . . وكل آية وردت في الكفار تجرُّ بذيلها على عصاة المؤمنين ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ أي فرضنا على اليهود في التوراة أن النفس تُقتل بالنفس ﴿والعين بالعين﴾ أي تُفقأ بالعين إذا فقئت بدون حق ﴿والأنف بالأنف﴾ أي يُجدع بالأنف إذا قطع ظلماً ﴿والأذن بالأذن﴾ أي تقطع بالأذن ﴿والسنَّ بالسنّ﴾ أي يقلع بالسنّ ﴿والجروح قصاص﴾ أي يُقتص من جانيها بأن يُفعل به مثل ما فعله بالمجني عليه وهذا في الجراح التي

(١) الفخر الرازي ١١/ ٢٣٦ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٧٨ . (٣) الكشاف ١/ ٤٩٦ . (٤) البحر ٣/ ٤٩٢ .

قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟

يمكن فيها المماثلة ولا يُخاف على النفس منها ﴿فمَن تصدَّق به فهو كفارةٌ له﴾ قال ابن عباس : أي فمن عفا عن الجاني وتصدَّق عليه فهو كفارةٌ للمطلوب وأجرٌ للطالب[١] وقال الطبري : من تصدَّق من أصحاب الحق وعفا فهو كفارة له أي للمتصدِّق ويكفِّر الله ذنوبه لعفوه وإسقاطه حقه[٢] ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ أي المبالغون في الظلم لمخالفة شرع الله ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدّقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي أتبعنا على آثار النبيّين بعيسى بن مريم وأرسلناه عقيبهم مصدقاً لما تقدّمه من التوراة ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ أي أنزلنا عليه الإنجيل فيه هدى إلى الحق ونور يُستضاء به في إزالة الشبهات ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي مُعترفاً بأنها من عند الله ، والتكرير لزيادة التقرير ﴿وهُدى وموعظةً للمتقين﴾ أي وهادياً وواعظاً للمتقين ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أي وآتينا عيسى بن مريم الإنجيل وأمرناه وأتباعه بالحكم به ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ أي المتمردون الخارجون عن الإيمان وطاعة الله ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي وأنزلنا إليك يا محمد القرآن بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ أي مصدّقاً للكتب السماوية التي سبقته ﴿ومُهيمناً عليه﴾ أي مؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب قال الزمخشري : أي رقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات[٣] قال ابن كثير : اسم المهيمن يتضمن ذلك فهو أمينٌ وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره[٤] ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي لا توافقهم على أغراضهم الفاسدة عادلاً عمّا جاءك في هذا القرآن قال ابن كثير : أي لا تنصرفْ عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء[٥] ﴿لكل جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجاً﴾ أي لكل أمةٍ جعلنا شريعة وطريقاً بيناً واضحاً خاصاً بتلك

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٥٢٢ . (٢) الطبري ١٠/ ٣٦٩ . (٣) الكشاف ١/ ٤٩٧ . (٤) مختصر ابن كثير ١/ ٥٢٤ .
(٥) ابن كثير المختصر ١/ ٥٢٤ .

﴿الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

الأمة قال أبو حيان : لليهود شرعةٌ ومنهاج وللنصارى كذلك والمراد في الأحكام وأما المعتقد فواحدٌ لجميع الناس توحيدٌ وإيمان بالرسل وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء[١] ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ أي لو أراد الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيءٌ منها الآخر ﴿ولكنْ ليبلوكم فيما آتاكم﴾ أي شرع الشرائع مختلفة ليختبر العباد هل يذعنون لحكم الله أم يُعرضون ، فخالف بين الشرائع لينظر المطيع من العاصي ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خيرٌ لكم من طاعة الله واتباع شرعه ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ أي معادكم ومصيركم أيها الناس إلى الله يوم القيامة فيخبركم بما اختلفتم فيه من أمر الدين ويجازيكم بأعمالكم ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ أي أُحكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن ولا تتّبع أهواءهم الزائفة ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي احذر هؤلاء الأعداء أن يصرفوك عن شريعة الله فإنهم كذَبَةٌ كفرةٌ خونة ﴿فإن تولَّوا فاعلم أنما يريد الله أن يُصيبهم ببعض ذُنوبهم﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره فاعلم يا محمد أنما يريد الله أن يعاقبهم ببعض إجرامهم ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق منهمكون في المعاصي ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى أيتولون عن حكمك ويبتغون غير حكم الله وهو حكم الجاهلية ؟ ﴿ومن أحسنُ من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه ، وأصدقُ في بيانه ، وأحكم في تشريعه لقوم يصدّقون بالعليّ الحكيم ! !

البَـلاَغَـة : ١ - ﴿يا أيها الرسول﴾ الخطاب بلفظ الرسالة للتشريف والتعظيم .

٢ - ﴿يسارعون في الكفر﴾ إيثار كلمة « في » على كلمة « إلى » للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه إلى بعضٍ آخر[٢] .

٣ - ﴿سمّاعون للكذب﴾ صيغة فعّال للمبالغة أي مبالغون في سماع الكذب .

٤ - ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ تنكير الخزي للتفخيم وتكرير لهم ﴿ولهم في الآخرة﴾ لزيادة التقرير والتأكيد وبين كلمتي « الدنيا والآخرة » طباقٌ .

٥ - ﴿وكيف يحكّمونك﴾ تعجيبٌ من تحكيمهم لرسول الله ﷺ وهم لا يؤمنون به ولا بكتابه .

---

(١) البحر ٣/٥٠٢ . (٢) أبو السعود ٢/٢٧ .

٦ - ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان ببعد درجتهم في العتو والمكابرة .
٧ - ﴿فلا تخشوا الناس﴾ خطابٌ لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الإلتفات والأصل « فلا يخشوا » .
٨ - ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي بادروا فعل الخيرات وفيه استعارة حيث شبهه بالمتسابقين على ظهور الخيل إذ كل واحد ينافس صاحبه في السبق لبلوغ الغاية المقصودة[1] .

الفوائد : قال الفخر الرازي : خاطب الله محمداً ﷺ بقوله ﴿يا أيها النبي﴾ في مواضع كثيرة وما خاطبه بقوله ﴿يا أيها الرسول﴾ إلا في موضعين أحدهما ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ والثاني في هذه السورة أيضاً وهو قوله ﴿يا أيها الرسول بلّغْ ما أُنزل إليك﴾ وهذا الخطاب لا شك أنه خطاب تشريف وتعظيم[2] .

تنبيه : يقول شهيد الإسلام « سيد قطب » طيَّب الله ثراه في تفسير الظلال ما نصه « إن الجاهلية في ضوء هذا النص القرآني البليغ ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ هي حكم البشر للبشر وعبودية البشر للبشر ورفض أُلوهية الله والخروج من عبوديته إلى عبودية غير الله ، إنه مفرق الطريق فإما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية ولا وسط ولا بديل ، إما أن تنفّذ شريعة الله في حياة الناس أو ينفّذ حكم الجاهلية وشريعة الهوى ومنهج العبودية لغير الله ، والجاهلية ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع يوجد بالأمس واليوم وغداً والناسُ إما أنهم يحكمون بشريعة الله ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً فهم إذاً مسلمون وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر فهم في جاهلية وهم خارجون عن شريعة الله »[3] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . إلى . . وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ من آية (٥١) إلى نهاية آية (٦٦)

المناسبة : لما حكى تعالى عن أهل الكتاب أنهم تركوا العمل بالتوراة والإنجيل وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق ، حذّر تعالى في هذه الآيات من موالاة اليهود والنصارى ، ثم عدّد جرائم اليهود وما اتهموا به الذات الإلهية المقدسة من شنيع الأقوال وقبيح الفعال .

اللغة : ﴿دائرة﴾ واحدة الدوائر وهي صروف الدهر ونوازله قال الراجز :

تردُّ عنكَ القَدَرَ المَقْدُورَا ودائراتِ الدَّهر أنْ تَدُورا[4]

﴿حبطت﴾ بطلت وذهبت ﴿تنقمون﴾ تنكرون وتعيبون ﴿السحت﴾ الحرام وقد تقدم ﴿مغلولة﴾ مقبوضة والغلُّ : القيد يوضع في اليد وهو كناية عن البخل ، وغلّه وضع القيد في يده ﴿أطفأها﴾ الإطفاء : الإخماد حتى لا يبقى هناك أثر ﴿مقتصدة﴾ أي عادلة غير متغالية من القصد وهو الاعتدال .

---

(١) تلخيص البيان ص ٣١ . (٢) الفخر الرازي ١١/ ٢٣١ . (٣) ظلال القرآن ٦/ ١٨٣ بإيجاز . (٤) الطبري ١٠/ ٤٠٤ .

سَبَبُ النّزول : ا ـ عن ابن عباس قال : كان « رفاعةُ بن زيد » و « سُوَيْد بن الحارث » قد أظهرا الإسلام ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعباً . . .﴾[١] الآية .

ب ـ عن ابن عباس قال : جاء نفرٌ من اليهود إلى النبيﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام ، فقال : أو من بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله « ونحن له مسلمون » فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا : والله ما نعلم أهل دينٍ أقلَّ حظاً في الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من دينكم فأنزل الله ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله﴾[٢] الآية .

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟

التفسِير : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ نهى تعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرونهم معاشرة المؤمنين[٣] ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم يدٌ واحدة على المسلمين لاتحادهم في الكفر والضلال ، وملةُ الكفر واحدةٌ ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ أي من جملتهم وحكمُه حكمُهم قال الزمخشري : وهذا تغليظٌ من الله وتشديدٌ في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله كما قالﷺ (لا تراءى نارهما)[٤] ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يهديهم إلى الإيمان ﴿فترى الذين في قُلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم﴾ أي شك ونفاق كعبد الله بن أُبيّ وأصحابه يسارعون في مُوالاتهم ومُعاونتهم ﴿يقولون نخشى أن تُصيبنا دائرة﴾ أي يقولون معتذرين عن موالاة الكافرين نخاف حوادث الدهر وشروره أن يظفر اليهود بالمسلمين فلا يتم الأمر لمحمد قال تعالى رداً على مزاعمهم الفاسدة ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ يعني فتح مكة[٥] وهذه بشارة للنبيﷺ والمؤمنين بوعده تعالى بالفتح والنصرة ﴿أو أمر من عنده﴾ أي يُهلكهم بأمرٍ من عنده لا يكون فيه تسبّبٌ لمخلوق كإلقاء الرعب في قُلوبهم كما فعل ببني النضير ﴿فيُصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين﴾ أي يصير المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاة أعداء الله من اليهود والنصارى ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ أي يقول المؤمنون تعجباً من حال المنافقين إذا هتك الله سترهم ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جَهْد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ أي حلفوا لكم يا معشر اليهود بأغلظ الايمان إنهم لمعكم

(١) أسباب النزول للواحدي ص ١١٤ . (٢) القرطبي ٦/ ٢٣٣ ومجمع البيان ٣/ ٢١٤ . (٣) البحر ٣/ ٥٠٧ .
(٤) الكشاف ١/ ٤٩٩ . (٥) هذا قول السدي وقال ابن عباس : هو ظهور النبيﷺ والمسلمين على جميع الخلق بانتصاره عليهم .

خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن
يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

بالنصرة والمعونة كما حكى تعالى عنهم ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ أي بطلت أعمالهم بنفاقهم فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه﴾ خطابٌ على وجه التحذير والوعيد والمعنى : يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدّله بدينٍ آخر ويرجع عن الإيمان إلى الكفر[١] ﴿فسوف يأتي الله بقومٍ يحبُّهم ويحبونه﴾ أي فسوف يأتي الله مكانهم بأناسٍ مؤمنين يحبّهم الله ويحبّون الله ﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزّة على الكافرين﴾ أي رحماء متواضعين للمؤمنين أشداء متعززين على الكافرين قال ابن كثير : وهذه صفاتُ المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعززاً على عدوّه[٢] كقوله تعالى ﴿أشداء على الكفّار رحماء بينهم﴾ ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون ليّن الجانب متواضعاً لإخوانه المؤمنين متسربلاً بالعزّة حيال الكافرين والمنافقين ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ أي يجاهدون لإعلاء كلمة الله ولا يبالون بمن لامهم فهم صلاب في دين الله لا يخافون في ذات الله أحداً ﴿ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء﴾ أي من اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿والله واسعٌ عليم﴾ أي واسع الإفضال والإحسان عليمٌ بمن يستحق ذلك ، ثمّ لما نهاهم تعالى عن موالاة الكفرة ذكر هنا من هم حقيقون بالموالاة فقال ﴿إنما وليُّكم اللهُ ورسولهُ والذين آمنوا﴾ أي ليس اليهود والنصارى بأوليائكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون متواضعون لله عز وجل قال في التسهيل : ذكر تعالى الوليَّ بلفظ المفرد إفراداً لله تعالى بها ، ثم عطف على اسمه تعالى الرسولﷺ والمؤمنين على سبيل التّبع ، ولو قال « إنما أولياؤكم » لم يكن في الكلام أصلٌ وتبع[٣] ﴿ومن يتولّ اللهَ ورسولهُ والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ أي من يتولّ الله ورسوله والمؤمنين فإنه

(١) في الآية إعلامٌ بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه وقد ارتد عن الإسلام فرقٌ كثيرة منهم من ارتد في عهد رسول اللهﷺ ومنهم في عهد أبي بكر ، وقد ارتد بنو حنيفة قوم « مسيلمة الكذاب » وكتب مسيلمة إلى رسول اللهﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد : فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك فأجابه عليه السلام : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . (٢) مختصر ابن كثير ١/٥٢٨ . (٣) التسهيل ١/١٨١ .

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

من حزب الله وهم الغالبون القاهرون لأعدائهم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعباً﴾ أي لا تتخذوا أعداء الدين الذين يسخرون من دينكم ويهزءون ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفّار أولياء﴾ أي من هؤلاء المستهزئين اليهود والنصارى وسائر الكفرة أولياء لكم تودّونهم وتحبونهم وهم أعداء لكم ، فمن اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه بل يجب أن تبغضوه وتعادوه ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي اتقوا الله في موالاة الكفار والفجار إن كنتم مؤمنين حقاً ، ثمَّ بيّن تعالى جانباً من استهزائهم فقال ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هُزُواً ولعباً﴾ أي وإذا أذنتم إلى الصلاة ودعوتم إليها سخروا منكم ومن صلاتكم قال في البحر : حسد اليهود الرسولﷺ حين سمعوا الأذان وقالوا : ابتدعتَ شيئاً لم يكن للأنبياء فمن أين لك الصياح كصياح العير فما أقبحه من صوت فأنزل الله هذه الآية[1] نبّه تعالى على أنَّ من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يُتّخذ ولياً بل يُهجر ويطرد ، وهذه الآية جاءت كالتوكيد للآية قبلها ﴿ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون﴾ أي ذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصلاة ولا يدركون غايتها في تطهير النفوس ، ونفى العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين وإن كان لهم عقول يدركون بها مصالح الدنيا ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منّا﴾ أي قل يا محمد : يا معشر اليهود والنصارى هل تعيبون علينا وتنكرون منا ﴿إلاّ أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ أي إلا إيماننا بالله وبما جاء به رسل الله قال ابن كثير : أي هل لكم علينا مطعنٌ أو عيبٌ إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيبٍ ولا مذمة فيكون الاستثناء منقطعاً[2] ﴿وأنَّ أكثركم فاسقون﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم ﴿قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك﴾ أي هل أخبركم بما هو شرٌّ من هذا الذي تعيبونه علينا ؟ ﴿مثوبةً عند الله﴾ أي ثواباً وجزاءً ثابتاً عند الله قال في التسهيل : ووضع الثوابَ موضع العقاب تهكماً بهم نحو قوله ﴿فبشرهم بعذابٍ أليم﴾[3] ﴿من لعنه الله﴾ أي طرده من رحمته ﴿وغضب عليه﴾ أي سخط عليه بكفره وانهماكه في المعاصي بعد وضوح الآيات ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ أي ومسخ بعضَهم قردةً وخنازير ﴿وعَبَدَ الطاغوتَ﴾ أي وجعل منهم من عَبَد الشيطان بطاعته ﴿أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾ أي هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك القبائح

(١) البحر ٣/ ٥١٥ وقال أبو السعود عند هذه الآية : روي أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمداً رسول الله يقول : أحرق الله الكاذب ، فدخل خادمه ذات ليلة بنارٍ وأهلهُ نيامٌ فتطايرت منه شرارةٌ في البيت فأحرقته وأهله جميعاً أبو السعود ٢/ ٤٠ .
(٢) مختصر ابن كثير ١/ ٥٣٠ . (٣) التسهيل ١/ ١٨٢ .

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ﴾

والفضائح شرٌ مكاناً في الآخرة وأكثر ضلالاً عن الطريق المستقيم قال ابن كثير والمعنى : يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر[1] ؟ قال القرطبي : ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم : يا إخوة القردة والخنازير فنكّسوا رءوسهم افتضاحاً وفيهم يقول الشاعر :

فلعنة الله على اليهود إن اليهود إخوةُ القرود[2]

﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا﴾ الضمير يعود إلى المنافقين من اليهود أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ أي والحال قد دخلوا إليك كفاراً وخرجوا كفاراً لم ينتفعوا بما سمعوا منك يا محمد من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ والزواجر ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أي من كفرهم ونفاقهم وفيه وعيد شديدٌ لهم ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان﴾ أي وترى كثيراً من اليهود يسابقون في المعاصي والظلم ﴿وأكلهمُ السحت﴾ أي أكلهم الحرام ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ أي بئس أعمالهم القبيحة تلك الأخلاق الشنيعة ﴿لولا ينهاهم الربّانيون والأحبار﴾ أي هلاً يزجرهم علماؤهم وأحبارهم ﴿عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ أي عن المعاصي والآثام وأكل الحرام ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ أي بئس صنيعهم ذلك تركهم النهي عن ارتكاب محارم الله قال ابن عباس : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية - يعني على العلماء - وقال أبو حيان : تضمنت هذه الآية توبيخ العلماء والعبّاد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله وأنشد ابن المبارك :

وهلْ أفسَدَ الدِّينَ إلا الملو كُ وأحبارُ سَوْءٍ ورهبانها[3]

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ أي قال اليهود اللعناء إن الله بخيلٌ يقتّر الرزق على العباد قال ابن عباس : مغلولة أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون إنه بخيل[4] ﴿غُلّت أيديهم﴾ دعاءٌ عليهم بالبخل المذموم والفقر والنكد ﴿ولُعنوا بما قالوا﴾ أي أبعدهم الله من رحمته بسبب تلك المقالة الشنيعة ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ أي بل هو جواد كريم سابغ الإنعام يرزق ويعطي كما يشاء قال أبو السعود : وتضييق الرزق ليس لقصورٍ في فيضه بل لأن إنفاقه تابعٌ

(١) ابن كثير ١/٥٣١ . (٢) القرطبي ٦/٢٣٦ . (٣) البحر المحيط ٣/٥٢٢ . (٤) الطبري ١٠/٤٥٢ .

﴿إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

لمشيئته المبنيّة على الحِكَم وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيّق عليهم[1] ﴿وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ أي وليزيدنَّهم هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم وطغياناً فوق طغيانهم إذ كلّما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً قال الطبري : أعلم تعالى نبيّه أنهم أهل عتو وتمرّد على ربهم وأنهم لا يذعنون لحقٍّ وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه يسلّي بذلك نبيَّهﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إيّاه[2] ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي ألقينا بين اليهود العداوة والبغضاء فكلمتهم مختلفة وقلوبهم شتّى لا يزالون متباغضين متعادين إلى قيام الساعة ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ أي كلما أرادوا إشعال حربٍ على رسول اللهﷺ أطفأها الله ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله ويسعون لإثارة الفتن بين المسلمين قال ابن كثير : أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ أي لا يحب من كانت هذه صفته[3] ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا﴾ أي لو أن اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسوله حق الإيمان واتقوا محارم الله فاجتنبوها ﴿لكفّرنا عنهم سيئاتهم﴾ أي محونا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها ﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ أي ولأدخلناهم مع ذلك في جنان النعيم ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم﴾ أي ولو أنهم استقاموا على أمر الله وعملوا بما في التوراة والإنجيل وبما أُنزل إليهم في هذا الكتاب الجليل الذي نزل على خاتم الرسلﷺ ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي لوسّع الله عليهم الأرزاق وأغدق عليهم الخيرات بإفاضة بركات السماء والأرض عليهم ﴿منهم أُمةٌ مقتصدة﴾ أي منهم جماعة معتدلة مستقيمة غير غالية ولا مقصّرة ، وهم الذين آمنوا بمحمدﷺ كعبد الله بن سلام والنجاشي وسلمان ﴿وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون﴾ أي وكثير منهم أشرار بئس ما يعملون من قبيح الأقوال وسوء الفعال .

البَلاَغَة : ١ - ﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ بين لفظ « أعزّة » و « أذلة » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ ﴿من فوقهم . . ومن تحت أرجلهم﴾ .

(١) أبو السعود ٢/٤٣ . (٢) الطبري ١٠/٤٥٧ . (٣) مختصر ١/٥٣٢ .

٢ ـ ﴿لومة لائم﴾ في تنكير لومة ولائم مبالغةٌ لا تخفى لأن اللّومة المرّة من اللوم .

٣ ـ ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ هذا على سبيل التهييج .

٤ ـ ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا﴾ يسمى مثل هذا عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس فقد جعلوا التمسك بالإيمان موجباً للإنكار والنقمة مع أن الأمر بالعكس .

٥ ـ ﴿مثوبة عند الله من لعنه الله﴾ هذا من باب التهكم حيث استعملت المثوبة في العقوبة .

٦ ـ ﴿شرٌ مكاناً﴾ نسب الشرَّ للمكان وهو في الحقيقة لأهله وذلك مبالغة في الذم .

٧ ـ ﴿يد الله مغلولة﴾ غلُّ اليد كناية عن البخل وبسطها كناية عن الجود .

٨ ـ ﴿أوقدوا ناراً للحرب﴾ إيقاد النار في الحرب استعارة لأن الحرب لا نار لها وإنما شبهت بالنار لأنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها .

٩ ـ ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ استعارة أيضاً عن سبوغ النعم وتوسعة الرزق عليهم كما يقال : عمَّه الرزق من فوقه إلى قدمه .

الفـوائـد : **الأولى** : روي أن عمر بلغه أن كاتباً نصرانياً قد استعمله أبو موسى الأشعري فكتب إلى أبي موسى : لا تكرموهم إذْ أهانهم الله ، ولا تأمنوهم إذْ خوّنهم الله ، ولا تُدنوهم إذْ أقصاهم الله فقال له أبو موسى : لا قوام للبصرة إلا به فقال عمر : مات النصراني فماذا تفعل[١] .

الثانية : قُتِلَ مسيلمةُ الكذاب في عهد أبي بكر على يد « وحشي » قاتل حمزة وكان يقول : قتلتُ خير الناس في الجاهلية ـ يريد حمزة ـ وشرَّ الناس في الإسلام ـ يريد مسيلمة الكذاب .[٢]

الثالثة : قال المفسرون : « عسى » من الله واجب لأن الكريم إذا أطمع في خير فعله فهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به[٣] .

الرابعة : قال البيضاوي في قوله تعالى ﴿لولا ينهاهم الربانيون﴾ فيها تحضيضٌ لعلمائهم للنهي عن ذلك فإنَّ ﴿لولا﴾ إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض[٤] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الرسول بلّغْ ما أنزل إليك من ربك . . . إلى . . ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون﴾ من آية (٦٧) إلى نهاية آية (٨١) .

المنـاسـبـة : لمّـا حذر تعالى المؤمنين من موالاة الكافرين ، وكانت رسالته ﷺ تتضمن الطعن في

(١) البحر ٣/٥٠٧ . (٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٠٣٤ . (٣) الرازي ١٢/ ١٦ . (٤) البيضاوي ص ١٥٦ .

أحوال الكفرة والمخالفين ، وهذا يستدعي مناصبتهم العداء له ولأتباعه أمره تعالى في هذه الآيات بتبليغ الدعوة ، ووعده بالحفظ والنصرة ، ثم ذكر تعالى طرفاً من عقائد أهل الكتاب الفاسدة وبخاصة النصارى الذين يعتقدون بألوهية عيسى وأنه ثالث ثلاثة ، وردّ عليهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع .

اللغــة : ﴿يعصمك﴾ العصمة : الحفظ والحماية ﴿طغياناً﴾ الطغيان : تجاوز الحد في الظلم والغلوُّ فيه ﴿تأس﴾ تحزن ينال : أسِيَ يَأْسى ، والأسى : الحزن قال :

وانحلبتْ عيناه من فرط الأسَى[1]

﴿ خلت ﴾ مضت ﴿ صدّيقة ﴾ الصدِّيق : المبالغ في الصدق وفِعِّيل من أبنية المبالغة كما يقال رجل سِكِّيت أي مبالغ في السكوت وسِكِّير أي كثير السكر ﴿يؤفكون﴾ يُصرفون عن الحق يقال : أفكه إذا صرفه ومنه ﴿أجئتنا لتأفكنا﴾ ﴿تغلوا﴾ الغلو : التجاوز في الحد والتشدد في الأمر يقال : غلا في دينه غلواً تشدّد فيه حتى جاوز الحد .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس عن النبيﷺ أنه قال : (لمّا بعثني الله برسالته ضقتُ بها ذرعاً وعرفتُ أن من الناس من يكذبني فأنزل الله ﴿يا أيها الرسول بلّغْ ما أُنزل إليك من ربك﴾[2] الآية) .

ب ـ وعن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود إلى النبيﷺ فقالوا : ألستَ تُقرُّ أن التوراة حقٌّ من عند الله ؟ قال : بلى فقالوا : فإنّا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها فأنزل الله ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيءٍ حتى تقيموا التوراة والإنجيل . .﴾[3] الآية .

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ

التفسير : ﴿يا أيها الرسولُ بلّغْ ما أُنزل إليك من ربك﴾ هذا نداءُ تشريفٍ وتعظيمٍ ناداه تعالى بأشرف الأوصاف بالرسالة الربانية أي بلّغْ رسالة ربك غير مراقب أحداً ولا خائفٍ أن ينالك مكروه ﴿وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته﴾ قال ابن عباس : المعنى بلّغْ جميع ما أُنزل إليك من ربك فإن كتمتَ شيئاً منه فما بلّغت رسالته[4]، وهذا تأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته ﴿والله يعصمك من الناس﴾ أي يمنعك من أن ينالوك بسوء قال الزمخشري : هذا وعدٌ من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى : والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم ؟ روي أن رسول اللهﷺ كان يُحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدَم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله عز وجل[5] ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي إنما عليك البلاغ والله هو الذي يهدي من يشاء فمن قُضي له بالكفر لا يهتدي أبداً ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تُقيموا التوراة والإنجيل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى

---

(١) القرطبي ٦/ ٢٤٥ . (٢) أسباب النزول ص ١١٥ . (٣) القرطبي ٦/ ٢٤٥ . (٤) القرطبي ٦/ ٢٤٢ . (٥) الكشاف ١/ ٥١٤ .

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ﴾

لستم على شيء من الدين أصلاً حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل وتقيموا أحكامها على الوجه الأكمل ، ومن إقامتها الإيمان بمحمد ﷺ ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ قال ابن عباس : يعني القرآن العظيم ﴿وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ اللام للقسم أي وأقسم ليزيدنَّ هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم غلواً في التكذيب وجحوداً لنبوتك[1] وإصراراً على الكفر والضلال ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي لا تحزن عليهم فإن تكذيب الأنبياء عادتُهم ودأبهم ، وهذه تسليةٌ للنبي ﷺ وليس بنهي عن الحزن[2] ثم قال تعالى ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي صدّقوا الله ورسوله وهم المسلمون ﴿والذين هادوا﴾ وهم اليهود ﴿والصابئون﴾ وهم طائفة من النصارى عبدوا الكواكب ﴿والنصارى﴾ وهم أتباع عيسى ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾ أي مَنْ آمن من هؤلاء المذكورين إيماناً صحيحاً خالصاً لا يشوبه ارتيابٌ بالله وباليوم الآخر وعمل صالحاً يقربه من الله ﴿فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فلا خوفٌ عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من الدنيا بعد معاينتهم جزيل ثواب الله[3] قال ابن كثير : والمقصود أن كلَّ فرقةٍ آمنت بالله واليوم الآخر وعملت عملاً صالحاً ـ ولا يكون ذلك كذلك حتى يوافق الشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين ـ فمن اتصف بذلك فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما تركوه وراء ظهورهم[4] ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي أخذنا من اليهود العهد المؤكد على الإيمان بالله ورسله قال في البحر : هذا إخبار بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذه تعالى عليهم وما اجترحوه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم، وهؤلاء أخلاف أولئك فغير بدعٍ ما يصدر منهم للرسول من الأذى والعصيان إذ ذاك شِنْشِنةٌ من أسلافهم[5] ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ أي أرسلنا لهم الرسل ليرشدوهم ويبينوا لهم أمر الدين ﴿كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم﴾ أي كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما يخالف أهواءهم وشهواتهم ﴿فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون﴾ أي كذبوا طائفةً من الرسل يقتلون طائفة أخرى منهم قال البيضاوي : وإنما جيء بـ « وقتلوا » موضع « قتلوا » على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبيهاً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً ومحافظةً على رءوس الآي[6] ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ أي وظنَّ بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاءٌ وعذاب بقتل الأنبياء

---

(١) الطبري ١٠/ ٤٧٤ . (٢) القرطبي ٦/ ٢٤٥ . (٣) الطبري ١٠/ ٤٧٦ . (٤) مختصر ابن كثير ١/ ٥٣٥ . (٥) البحر ٣/ ٥٣١ .
(٦) البيضاوي ص ١٥٧ .

ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ

وتكذيب الرسل اغتراراً بإمهال الله عزّ وجلّ لهم ﴿فعمُوا وصمّوا﴾ أي تمادوا في الغيّ والفساد فعَمُوا عن الهدى وصمّوا عن سماع الحق وهذا على التشبيه بالأعمى والأصمّ لأنه لا يهتدي إلى طريق الرشد في الدين لإعراضه عن النظر ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ قال القرطبي : في الكلام إضمارٌ أي أوقعت بهم الفتنةُ فتابوا فتاب الله عليهم[1] ﴿ثمّ عمُوا وصمُّوا كثيرٌ منهم﴾ أي عميَ كثير منهم وصمّ بعد تبيّن الحق له ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي عليم بما عملوا وهذا وعيدٌ لهم وتهديد ، ثم ذكر تعالى عقائد النصارى الضالة في المسيح فقال ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ قال أبو السعود : هذا شروعٌ في تفصيل قبائح النصارى وإبطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء الذين قالوا إن مريم ولدت إلهاً هم « اليعقوبية » زعموا أن الله تعالى حلّ في ذات عيسى واتحد به ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[2] ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي أنا عبدٌ مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم الذي يذلّ له كل شيء ويخضع له كل موجود قال ابن كثير : كان أول كلمة نطق بها وهو صغير أن قال ﴿إني عبد الله﴾ ولم يقل : إني أنا الله ، ولا ابن الله بل قال ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾[3] وقال القرطبي : ردَّ الله عليهم ذلك بحجةٍ قاطعةٍ مما يُقرّون به فقال ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ فإذا كان المسيح يقول : يا رب ، ويا ألله فكيف يدعو نفسه أم كيف يسألها ؟ هذا محال[4] ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة﴾ أي من يعتقد بألوهية غير الله فلن يدخل الجنة أبداً لأنها دار الموحّدين ﴿ومأواه النار﴾ أي مصيره نار جهنم ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي فلا ناصر ولا منقذ له من عذاب الله ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ أي أحد ثلاثة آلهة وهذا قول فرقةٍ من النصارى يسمون « النُّسطورية والملكانية » القائلين بالتثليث وهم يقولون : إن الإلهيّة مشتركة بين الله ، وعيسى ، ومريم وكل واحدٍ من هؤلاء إله ولهذا اشتهر قولهم « الأب والابن وروح القدس »[5] ﴿وما من إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ﴾ أي والحال أنه ليس في الوجود إلا إله واحدٌ موصوفٌ بالوحدانية متعالٍ عن المثيل والنظير ﴿وإن لم ينتهوا عمّا يقولون﴾ أي وإن لم يكفّوا عن القول بالتثليث ﴿ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ أي ليمسنهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾

(١) القرطبي ٦/ ٢٤٨ . (٢) أبو السعود ٢/ ٤٩ . (٣) ابن كثير ١/ ٥٣٦ .
(٤) القرطبي ٦/ ٢٤٩ . (٥) قال السدي : نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار وقال في البحر : يقولون جوهرٌ واحدٌ وثلاثة أقانيم « أب وابن وروح قدس » وهذه الثلاثة إلّه واحد كما ان الشمس تتناول القرص والشعاع والحرارة وزعموا أن الأب إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد ، وهذا معلوم البطلان ببداهة العقل أن الثلاثة لا تكون واحداً وان الواحد لا يكون ثلاثة .

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

الاستفهام للتوبيخ أي أفلا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة ويستغفرون الله مما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول ؟ ﴿والله غفور رحيم﴾ أي يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا قال البيضاوي : وفي هذا الاستفهام ﴿أفلا يتوبون﴾ تعجيبٌ من إصرارهم على الكفر ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل﴾ أي ما المسيح إلا رسولٌ كالرسل الخالية الذين تقدموه خصّه الله تعالى ببعض الآيات الباهرات إظهاراً لصدقه كما خصّ بعض الرسل ، فإن أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا في يد موسى . وجعلت حية تسعى وهو أعجب ، وإن خُلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أبٍ ولا أم وهو أغرب ، وكلٌ ذلك من جنابه عز وجل وإنما موسى وعيسى مظاهر شئونه وأفعاله ﴿وأمه صدّيقة﴾ أي مبالغة في الصّدق ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ أي أنه مخلوق كسائر المخلوقين مركبٌ من عظمٍ ولحمٍ وعروقٍ وأعصاب وفيه إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام لا بدّ أن يكون في حاجة إلى إخراجه ومن يكن هذا حاله فكيف يُعْبد ، أو كيف يُتوهم أنه إله ؟ ﴿انظر كيف نبيّن لهم الآيات﴾ تعجيبٌ من حال الذين يدَّعون ألوهيّته هو وأمه أي أنظر كيف نوضّح لهم الآيات الباهرة على بطلان ما اعتقدوه ﴿ثم انظر أنّى يؤفكون﴾ أي كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النّهار ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ أي قل يا محمد أتوجهون عبادتكم الى من لا يقدر لكم على النفع والضر ؟[1] ﴿والله هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم وتضمنت الآية الإنكار عليهم حيث عبدوا من هو متصفٌ بالعجز عن دفع ضرّ أو جلب نفع ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا الحد في دينكم وتُفرطوا كما أفرط أسلافكم فتقولوا عن عيسى إنه إلهٌ أو ابن إله قال القرطبي : وغلو اليهود قولهم في عيسى إنه ليس ولد رِشْدة - أي هو ابن زنا - وغلوُّ النصارى قولهم إنه إله[2] ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ أي لا تتبعوا أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل بعثة النبيﷺ ﴿وأضلوا كثيراً﴾ أي أضلوا كثيراً من الخلق بإغوائهم لهم ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ أي ضلوا عن الطريق الواضح المستقيم قال القرطبي : وتكرير ضلوا للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد ، والمرادُ الأسلافُ الذين سنُّوا

---

(١) قال في البحر : لما بيّن تعالى بدليل النقل والعقل انتفاء الألوهية عن عيسى ودعاهم للتوبة وطلب الغفران أنكر عليهم ووبخهم من وجهٍ آخر وهو عجز عيسى على دفع ضررٍ وجلب نفع وأنَّ من كان لا يدفع عن نفسه حريٌ ان لا يدفع عنكم ، البحر ٥٣٨/٣ . (٢) القرطبي ٢٥٢/٦

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى[١] ﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسانِ داود وعيسى ابن مريم﴾ أي لعنهم الله عز وجل في الزبور ، والإنجيل قال ابن عباس : لُعنوا بكل لسان ، لعنوا على عهد موسى في التوراة ، وعلى عهد داود في الزبور ، وعلى عهد عيسى في الإنجيل وعلى عهد محمد في القرآن[٢] قال المفسرون : إن اليهود لمّا اعتدوا في السبت دعا عليهم داود فمسخهم الله قردة ، وأصحاب المائدة لمّا كفروا بعيسى دعا عليهم عيسى فمُسخوا خنازير ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم ، ثمَّ بيَّن تعالى حالهم الشنيع فقال ﴿كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه﴾ أي لا ينهى بعضُهم بعضاً عن قبيحٍ فعلوه ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ أي بئس شيئاً فعلوه قال الزمخشري : تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم فيا حسرتا على المسلمين في إعراضهم عن التناهي عن المنكر كأنه ليس من الإسلام في شيء مع ما يتلون من كتاب الله من المبالغات في هذا الباب[٣] وقال في البحر : وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر ، والتجاهر به ، وعدم النهي عنه ، والمعصيةُ إذا فُعلت ينبغي أن يُستتر بها لحديث (من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر) فإذا فُعلت جهاراً وتواطأ الناس على عدم الإنكار كان ذلك تحريضاً على فعلها وسبباً مثيراً لإفشائها وكثرتها[٤] ﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا﴾ أي ترى كثيراً من اليهود يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين والمراد « كعب بن الأشرف » وأصحابه ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ أي بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿أن سخط الله عليهم﴾ وهذا هو المخصوص بالذم أي بئس ما قدموه لآخرتهم سخطُ الله وغضبُه عليهم ﴿وفي العذاب هم خالدون﴾ أي وفي عذاب جهنم مخلّدون أبد الآبدين ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أُنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يصدّقون بالله ونبيّهم وما جاءهم من الكتاب ما اتخذوا المشركين أولياء ﴿ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون﴾ أي ولكنَّ أكثرهم خارجون عن الإيمان وطاعة الله عز وجل .

البَــلاَغَــة : ١ - ﴿لستم على شيء﴾ في هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غاية وراءه[٥] .

٢ - ﴿وما أُنزل إليكم من ربكم﴾ أضاف الاسم الجليل إليهم تلطفاً معهم في الدعوة .

٣ - ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ لم يقل عليهم وإنما وضع الظاهر مكان الضمير للتسجيل

---

(١) القرطبي ٦/ ٢٥٢ . (٢) البحر ٣/ ٥٣٩ . (٣) الكشاف ١/ ٥١٩ . (٤) البحر ٣/ ٥٤٠ . (٥) أبو السعود ٢/ ٤٦ .

عليهم بالرسوخ في الكفر .

٤ - ﴿والله بصير بما يعملون﴾ صيغة المضارع بدل الماضي ﴿بما عملوا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة ومراعاةً لرءوس الآيات .

٥ - ﴿فقد حرّم الله عليه الجنة﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة .

٦ - الاستعارة ﴿فعموا وصمُّوا﴾ استعار العمى والصمم للإعراض عن الهداية والإيمان

٧ - ﴿انظر كيف نبيّن﴾ ﴿ثم انظر أنّى يؤ فكون﴾ قال أبو السعود : تكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب ولفظ « ثمَّ » لإظهار ما بين العجبين من التفاوت أي إن بياننا للآيات أمرٌ بديع بالغٌ أقصى الغايات من الوضوح والتحقيق وإعراضهم عنها أعجبُ وأبدع[1] .

٨ - ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ تقبيحٌ لسوء أعمالهم وتعجيبٌ منه بالتوكيد مع القسم .

الفـوائـد : قال بعض المحققين في قوله تعالى ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ إذا كان هذا في حق عيسى النبي فما ظنك بوليّ من الأولياء هل يملك لهم نفعاً أو ضراً ؟ !

تـنبيـه : قال ابن كثير : دلت الآية ﴿وأمُّه صدِّيقة﴾ على أن مريم ليست بنبيَّة كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة « سارة » ونبوة « أم موسى » استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ وحكى الأشعري الإجماع على ذلك[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود . . إلى . . واتقوا الله الذي إليه تُحشرون﴾ من آية (٨٢) إلى نهاية آية (٩٦) .

المناسَبَة : لمّا ذكر تعالى أحوال اليهود والنصارى وما هم عليه من الزيغ والضلال ، ذكر هنا أنَّ اليهود في غاية العداوة للمسلمين ، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة ، وذكر أن النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم ، ثم لمّا استقصى المناظرة مع أهل الكتاب عاد إلى بيان الأحكام الشرعية فذكر منها كفارة اليمين ، وتحريم الخمر والميسر ، وجزاء قتل الصيد في حالة الإحرام .

اللغَـة : ﴿قسّيسين﴾ القِسُّ والقسِّيس اسم لرئيس النصارى ومعناه العالم ﴿رهباناً﴾ جمع راهب وأصله من الرهبة بمعنى المخافة ، والرهبانيةُ والترهب التعبد في الصومعة[3] ﴿تفيض﴾ الفيض أن يمتلىء الإناء ويسيل من شدة الامتلاء يقال : فاض الماء وفاض الدمع قال الشاعر :

ففاضتْ دموعُ العينِ منّي صَبَابةً على النحرِ حتى بلَّ دمعي مِحْمَلي

(١) أبو السعود ٢/ ٥٠ . (٢) ابن كثير ١/ ٥٣٧ . (٣) القرطبي ٦/ ٢٥٨ .

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

﴿رجس﴾ قال الزجاج : الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل ويقال للعذرة والأقذار رجس لأنها قذارة ونجاسة ﴿الجحيم﴾ النار الشديدة الاتقاد ﴿الصيد﴾ كل ما يصطاد من حيوانٍ وطيرٍ وغيره فالصيد يطلق على المصيد قال الشاعر :

صيدُ الملوكِ أرانبٌ وثعالبٌ وإذا ركبتُ فصيديَ الأبْطالُ

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إني إذا أكلت هذا اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي وإني حرّمت عليّ اللحم فأنزل الله:﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم﴾[1] الآية .

ب ـ عن أنس قال : كنتُ ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت « أبي طلحة » وما شرابهم إلا الفضيخ والبسر والتمر ، وإذا منادٍ ينادي إن الخمر قد حرّمت قال : فأريقت في سكك المدينة فقال أبو طلحة إذهب فأهرقها فقال بعض القوم قُتل قومٌ وهي في بطونهم فأنزل الله ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا﴾[2] .

التفسير : ﴿لتجدنّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا﴾ اللام للقسم أي قسماً لتجدنّ يا محمد اليهود والمشركين أشدَّ الناس عداوة للمؤمنين ﴿ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى﴾ نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه قال الزمخشري : وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق ، ولين عريكة النصارى وسهولة ميلهم إلى الإسلام ، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين بل نبّه على زيادة عداوتهم بتقديمهم على الذين أشركوا[3] ﴿ذلك بأنَّ منهم قسّيسين ورهباناً﴾ تعليلٌ لقرب مودتهم أي كونهم أقرب مودة بسبب أن منهم علماء وعُباداً ﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ أي يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود قال البيضاوي : وفيه دليلٌ على أن التواضعَ والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات ، محمودٌ وإن كان من كافر[4] ﴿وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول﴾ أي إذا سمعوا القرآن المُنْزَل على محمد رسول الله ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ أي فاضت أعينهم بالدمع من خشية الله لرقة قلوبهم وتأثرهم بكلام الله الجليل ﴿مما عرفوا من الحق﴾ أي من أجل معرفتهم أنه كلام الله وأنه حق ﴿يقولون ربنا آمنا﴾ أي يقولون يا ربنا صدقنا بنبيّك وكتابك ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي مع أمة محمد عليه السلام الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة قال ابن

(١) أسباب النزول ١١٧ والقرطبي ٦/ ٢٦٠. (٢) القرطبي٦/ ٢٩٣ وأسباب النزول ١٢٠. (٣) الكشاف١/ ٥٢١. (٤) البيضاوي ص ١٥٩.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾

عباس : نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم « جعفر بن أبي طالب » بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم[1] ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق﴾ أي ما الذي يمنعنا عن الإِيمان ويصدنا عن اتّباع الحق وقد لاح لنا الصواب وظهر الحق المنير؟ قالوا ذلك في جواب من عيّرهم بالإِسلام من اليهود قال في البحر : هذا إنكارٌ واستبعادٌ لانتفاء الإِيمان منهم مع قيام موجبه وهو عرفان الحق[2] ﴿ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة بصحبة الصالحين من عباده الأبرار ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ أي جازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾ أي ذلك الأجر والثواب جزاء من أحسن عمله وأصلح نيّته ، ثم أخبر تعالى عن حال الأشقياء فقال ﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي جحدوا بآيات الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ فهم أهل الجحيم المعذّبون فيها قال أبو السعود : وذكَرهم بمقابلة المصدّقين بآيات الله جمعاً بين الترغيب والترهيب[3] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ روى الطبري عن عكرمة قال : كان أناسٌ من أصحاب النبي ﷺ همّوا بالخِصاء وترك اللحم والنساء فنزلت هذه الآية[4] أي لا تمنعوا أنفسكم تلك اللذائذ وتقولوا حرّمناها على أنفسنا مبالغة في تركها وتقشفاً وتزهُّداً ﴿ولا تعتدوا﴾ أي ولا تتعدّوا حدود ما أحل الله لكم بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي يبغض المتجاوزين الحد ، والإِسلام يدعو إلى القصد بدون إفراط أو تفريط ولهذا قال ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي كلوا ما حلَّ لكم وطاب مما رزقكم الله قال في التسهيل : أي تمتعوا بالمآكل الحلال وبالنساء وغير ذلك ، وإنما خصّ الأكل بالذكر لأنه أعظم حاجات الإنسان[5] ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ هذا استدعاء إلى التقوى بألطف الوجوه كأنه يقول : لا تضيّعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله عز وجل فتكون عليكم الحسرة العظمى فإن الإِيمان بالله تعالى يوجب المبالغة في تقوى الله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يؤاخذكم بما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقولكم لا والله ،

(١) ابن كثير ١/ ٥٣٩ (٢) البحر ٤/ ٦ . (٣) أبو السعود ٢/ ٥٥ . (٤) الطبري ١٠/ ٥١٤ . (٥) التسهيل ص ١٨٦ .

مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ

وبلى والله ﴿ولكـن يؤاخذكم بما عقَّدتـم الأيمان﴾ أي ولكن يؤ اخذكم بما وثّقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم ﴿فكفارتـه إطعام عشـرة مساكين من أوسط ما تُطعمون أهليكم﴾ أي كفارة اليمين عند الحنث أن تُطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تُطعمون منه أهليكم قال ابن عباس : أي من أعدل ما تُطعمون أهليكم وقال ابن عمر : الأوسطُ الخبز والتمر ، والخبز والزبيب ، وخيرُ ما نُطعم أهلينا الخبز واللحم[1] ﴿أو كسوتهـم﴾ أي كسوة المساكين لكل مسكين ثوبٌ يستر البدن ﴿أو تحرير رقبـة﴾ أي إعتاق عبد مملوك لوجه الله قال في البحر : وأجمع العلماء على أن الحانث مُخيّر بين الإطعام والكسوة والعتق[2] ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثـة أيـام﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام[3] ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتـم﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية عند الحنث ﴿واحفظوا أيمانكـم﴾ أي احفظوها عن الابتذال ولا تحلفوا إلا لضرورة قال ابن عباس : أي لا تحلفوا وقال ابـن جرير : أي لا تتركوها بغير تكفير ﴿كذلك يُبيّـن اللـه لكم آياته لعلكـم تشكرون﴾ أي مثل ذلك التبيين يبيّن الله لكـم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم ﴿يا أيهـا الذين آمنوا إنمـا الخمر والميسر﴾ قال ابن عباس : الخمر جميع الأشربة التي تُسكر ، والميسرُ القمار كانوا يتقامرون به في الجاهلية ﴿والأنصابُ والأزلام﴾ أي الأصنام المنصوبة للعبادة والأقداح التي كانت عند سدنة البيت وخُدّام الأصنـام قال ابـن عباس ومجاهد : الأنصاب حجارةٌ كانوا يذبحون قرابينهم عندها والأزلام : قداحٌ كانوا يستقسمون بها[4] ﴿رجسٌ من عمل الشيطـان﴾ أي قذر ونجسٌ تعافـه العقـول ، وخبيثٌ مستقـذر من تزيين الشيطـان ﴿فاجتنبوه لعلكـم تفلحـون﴾ أي اتركوه وكونوا في جانب آخر بعيدين عن هذه القاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم ﴿إنما يُريد الشيطـان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميســر﴾ أي ما يريد الشيطان بهذه الرذائل إلا إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين في شربهم الخمر ولعبهم بالقمار ﴿وَيَصُدكم عن ذكر اللـه وعـن الصـلاة﴾ أي ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصلاة التي هي عماد دينكم قال أبو حيان : ذكر تعالى في الخمر والميسر مفسدتين : إحداهما دنيوية ، والأخرى دينية ، فأما الدنيوية فإن الخمر تثير الشرور والأحقاد وتئول بشاربها إلى التقاطع ، وأما الميسر فإن الرجل لا

---

(١) ابن كثير ١/ ٥٤٣ . (٢) البحر ٤/ ١١ . (٣) شرط الاحناف والحنابلة التتابع في الأيام وقال الشافعي ومالك لا يجب التتابع واختار الطبري أنه كيفما صامهن مفرقة أو متتابعة اجزأه كذا في الطبري ١٠/ ٥٦٢ . (٤) البحر المحيط ٤/ ١٤ .

فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

يزال يقامر حتى يبقى سليباً لا شيء له وينتهي إلى أن يقامر حتى على أهله وولده ، وأما الدينية فالخمر لغلبة السرور والطرب بها تُلهي عن ذكر الله وعن الصلاة ، والميسر ـ سواء كان غالباً أو مغلوباً ـ يلهي عن ذكر الله[1] ﴿فهل أنتم منتهون﴾ الصيغة للاستفهام ومعناه الأمر أي انتهوا ولذلك قال عمر : انتهينا ربّنا انتهينا قال في البحر : وهذا الاستفهام من أبلغ ما يُنهى به كأنه قيل : قد تُلي عليكم ما فيهما من المفاسد التي توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم[2] ؟ ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله واحذروا مخالفتهما ﴿فإن توليتم﴾ أي أعرضتم ولم تعملوا بأمر الله ورسوله ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي ليس عليه هدايتكم وإنما عليه تبليغكم الرسالة وجزاؤكم علينا قال الطبري : وهذا من الله وعيدٌ لمن تولى عن أمره ونهيه يقول تعالى ذكره لهم : فإن توليتم عن أمري ونهي فتوقعوا عقابي واحذروا سخطي[3] وقال أبو حيان : وفي هذا من الوعيد البالغ ما لا خفاء به إذ تضمّن أن عقابكم إنما يتولاه المرسِلُ لا الرسول[4] ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناحٌ فيما طعموا﴾ قال ابن عباس : لما نزل تحريم الخمر قال قوم كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر فنزلت فأخبر تعالى أن الإثم والذمّ إنما يتعلق بفعل المعاصي والذين ماتوا قبل التحريم ليسوا بعاصين ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي ليس عليهم جُناحٌ فيما تناولوه من المأكول والمشروب إذا اتقوا المحرَّم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾ أي اتقوا المحرّم وآمنوا بتحريمه بمعنى اجتنبوا ما حرمّه الله معتقدين حرمته ﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾ أي ثم استمروا على تقوى الله واجتناب المحارم وعملوا الأعمال الحسنة التي تقربهم من الله ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يحب المتقربين إليه بالأعمال الصالحة قال في التسهيل : كرّر التقوى مبالغةً وقيل : **الرتبة الأولى**:إتقاء الشرك ،**والثانيةُ** :اتقاء المعاصي ،**والثالثةُ**: اتقاء ما لا بأس به حذراً مما به البأسُ[5] ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونّكم اللهُ بشيءٍ من الصيد تنالُه أيديكم ورماحُكم﴾ أي ليختبرنكم الله في حال إحرامكم بالحج أو العمرة بشيء من الصيد تنال صغاره الأيدي وكباره الرماح قال البيضاوي : نزل في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى : بالصيد وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون[6] قال في البحر : وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة[7] ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾

(١ و٢) البحر المحيط ٤/ ١٥ . (٣) الطبري ١٠/ ٥٧٥ . (٤) البحر ٤/ ١٥ .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٨٧ . (٦) البيضاوي ص ١٦٠ . (٧) البحر ٤/ ١٦ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

أي ليتميز الخائف من الله بطريق الغيب لقوة إيمانه ممن لا يخاف الله لضعف إيمانه ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم﴾ أي فمن تعرّض للصيد بعد هذا الإعلام والإنذار فله عذابٌ مؤلم موجع ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرمٌ﴾ أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة ﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثلُ ما قتل من النَّعم﴾ أي من قتل الصيد في حالة الإحرام فعليه جزاء يماثل ما قتل من النَّعم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿يحكم به ذوا عدلٍ منكم﴾ أي يحكم بالمِثْل حكمان عادلان من المسلمين ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ أي حال كونه هدياً يُنحر ويُتصدَّق به على مساكينه فإن لم يكن للصيد مثلٌ من النَّعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته ﴿أو كفارةٌ طعامُ مساكين﴾ أي وإذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النَّعم فيُقوِّمُ الصيدُ المقتول ثم يُشترى به طعامٌ فيصرفُ لكل مسكينٍ مدٌّ منه ﴿أو عدْل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره﴾ أي عليه مثل ذلك الطعام صياماً يصومه عن كل مدٍّ يوماً ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام قال في التسهيل : عدَّد تعالى ما يجب في قتل المحرم للصيد ، فذكر أولاً الجزاء من النَّعم ، ثم الطعام ، ثم الصيام ومذهب مالك والجمهور أنها على التخيير وهو الذي يقتضيه العطف بـ « أو » وعن ابن عباس أنها على الترتيب[1] ﴿عفا الله عمّا سلف﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ أي ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فينتقم الله منه في الآخرة ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ أي غالب على أمره منتقم ممن عصاه ﴿أحلَّ لكم صيد البحر﴾ أي أُحلَّ لكم أيها الناس صيد البحر سواء كنتم محرمين أو غير محرمين ﴿وطعامه متاعاً لكم وللسيَّارة﴾ أي وما يُطعم من صيده كالسمك وغيره منفعةً وقوتاً لكم وزاداً للمسافرين يتزودونه في أسفارهم ﴿وحُرِّم عليكم صيدُ البرِّ ما دمتم حُرُماً﴾ أي وحُرِّم عليكم صيد البر ما دمتم محرمين ﴿واتقوا الله الذي إليه تُحشرون﴾ أي خافوا الله الذي تبعثون إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم وهو وعيد وتهديد .

البَلاَغَة : ١ - بين لفظ ﴿عداوة . . ومودة﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿تفيض من الدمع﴾ أي تمتلىء بالدمع فاستعير له الفيضُ الذي هو الانصباب

(١) التسهيل ١/١٨٨ .

عن امتلاء مبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء تفيض بأنفسها[١] .

٣ ـ ﴿تحرير رقبة﴾ مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق إنسان .

٤ ـ ﴿فهل أنتم منتهون﴾ الاستفهام يراد به الأمر أي انتهوا وهو من أبلغ ما يُنهى به قال أبو السعود : ولقد أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صُدرت الجملة بـ « إنما » وقُرنا بالأصنام والأزلام ، وسُمّيا رجساً من عمل الشيطان ، وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعل ذلك سبباً للفلاح ، ثم ذكر ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية ، ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام ﴿فهل أنتم منتهون﴾ إيذاناً بأن الأمر في الزجر والتحذير قد بلغ الغاية القصوى[٢] .

فـائـدة : التعبير بقوله تعالى ﴿فاجتنبوه﴾ نصٌ في التحريم ولكنه أبلغ في النهي والتحريم من لفظ « حُرِّم » لأن معناه البعد عنه بالكلية فهو مثل قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ لأن القرب منه إذا كان حراماً فيكون الفعل محرماً من باب أولى وكذلك هنا .

تـنبيـه : لم يذكر في القرآن الكريم تعليل الأحكام الشرعية إلا بالإيجاز أمّا هنا فقد ذكرت العلة بالتفصيل فذكر تعالى منها إلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، والصدّ عن سبيل الله وذكره ، وشغل المؤمنين عن الصلاة ، ووصف الخمر والميسر بأنها رجس وأنهما من عمل الشيطان وأن الشيطان يريد إغواء الإنسان وكل ذلك ليشير إلى ضرر وخطر هاتين الرذيلتين « القمار والخمر » فتدبر أسرار القرآن العظيم[٣] .

* * *

قال الله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . إلى قوله.. والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

من آية (٩٧) إلى نهاية آية (١٠٨) .

المنـاسـبة : لما ذكر تعالى في الآية المتقدمة أن الصيد على المحرم حرام ، ونهى عن قتل الطير والوحش في حالة الإحرام ، ذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس إذ ركّز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى لأحد ، فكما أن الحرم سببٌ لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة .

اللغـة : ﴿البحيرة﴾ من البحر وهو الشق قال أبو عبيدة : وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن في آخرها ذكرٌ شقوا أذنها وخلّوا سبيلها فلا تُركب ولا تُحلب[٤] ﴿السائبة﴾ البعير يسيّب بنذرٍ ونحوه ﴿وصيلة﴾ الوصيلة من الغنم كانوا إذا ولَدت الشاة سبعة أبطن وكان السابع ذكراً وأُنثى قالوا قد وصلت

(١) انظر حاشية الكشاف ١/ ٥٢١ . (٢) أبو السعود ٢/ ٥٦ . (٣) روائع البيان ١/ ٥٦٢ . (٤) البحر ٤/ ٢٨ .

اخاها فلم تُذبح[1] ﴿حام﴾ : الفحْل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن يقال قد حمى ظهره فلا يُركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء ﴿عُثر﴾ ظهر يقال : عثرت منه على خيانة أي اطلعت وظهرت لي ﴿الأوليان﴾ تثنية أولى بمعنى أحق .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس قال : كان قومٌ يسألون النبيﷺ استهزاء فيقـول الرجـل : من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقتيه : أين ناقتي فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْد لكم تَسؤكم . .﴾ الآية[2] .

ب ـ وعن ابن عباس قال : كان تميم الداريُّ وعَدِيُّ بن بدّاء يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من « بني سهم » فتوفي بأرضٍ ليس بها مسلم ، فأوصى إليهما فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاماً من فضـة مخوّصاً بالذهب ، فاستحلفهما رسول اللهﷺ ما كتمتما ولا اطلعتما !! ثم وُجد الجام بمكة فقالوا : اشتريناه من عديّ وتميم فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي ولشهادتنا أحقُّ من شهادتهما وما اعتدينا فأخذوا الجام وفيهم نزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم . .﴾ الآية[3] .

* جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى

التفسير : ﴿جعل الله الكعبة البيتَ الحرام قياماً للناس﴾ أي جعل الله الكعبة المشرّفة وهي البيت المحرّم صلاحاً ومعاشاً للناس لقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سببٌ لانتعاشهم في أمور معاشهم ومعادهم ، يلوذ به الخائف ، ويأمن فيه الضعيف ، ويربح فيه التجار ، ويتوجه إليه الحُجّاج والعمار ﴿والشهر الحرام﴾ أي الأشهر الحُرُم « ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب » قياماً لهم لأمنهم القتال فيها ﴿والهدي والقلائد﴾ أي الهدي الذي يُهدى للحرم من الأنعام ، والبُدن ذوات القلائد التي تُقلّد من شجر الحرم لتأمن هي وأصحابها جعلها الله أيضاً قياماً للناس ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ أي جعل هذه الحرمة للبيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد لتعلموا أيها الناس أن الله يعلم تفاصيل أمور السموات والأرض ويعلم مصالحكم لذلك جعل الحرم آمناً يسكن فيه كل شيء ، فانظروا لطفه بالعباد مع كفرهم وضلالهم ﴿إعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ أي اعلموا أيها الناس أن الله شديد العقاب لمن عصاه وأنه غفور رحيم لمن تاب وأطاع وأناب ، فلا تُيئسنكم نقمتُه ولا تُطْمعنّكم رحمتُه ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ أي ليس على الرسول إلا أداء الرسالة

(١) غريب القرآن ص١٤٧ .(٢) أسباب النزول ص ١٢٠ . (٣) القرطبي ٦/ ٣٤٦ .

ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

وتبليغ الشريعة وقد بلّغ ما وجب عليه فلا عذر لأحدٍ في التفريط ﴿والله يعلم ما تُبدون وما تكتمون﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم وسيجازيكم عليها قال أبو حيان : الجملة فيها تهديد إذ أخبر تعالى أنه مطّلع على حال العبد ظاهراً وباطناً فهو مجازيه على ذلك ثواباً أو عقاباً[١] ﴿قل لا يستوي الخبيثُ والطيّبُ ولو أعجبك كثرةُ الخبيث﴾ أي قل يا محمد لا يتساوى الخبيث والطيّبُ ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث وهو مثلٌ ضربه الله للتمييز بين الحلال والحرام ، والمطيع والعاصي ، والرديء والجيد قال القرطبي : اللفظ عامٌ في جميع الأمور يتصور في المكاسب ، والأعمال ، والناس ، والمعارف من العلوم وغيرها ، فالخبيث من هذا كلّه لا يُفلح ولا يُنْجِب ولا تحَسن له عاقبةٌ وإن كثر ، والطيّب ـ وإن قلَّ ـ نافعٌ حميدٌ جميل العاقبة[٢] وقال أبو حيان : الظاهر أن الخبيث والطيّب عامّان فيندرج تحتهما المال وحرامه ، وصالح العمل وفاسده ، وجيّد الناس ورديئهم ، وصحيح العقائد وفاسدها ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿والبلد الطيّب يخرج نباتُه بإذن ربه والذي خَبُثَ لا يخرج إلانكداً[٣]﴾ ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تُفلحون﴾ أي فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يا ذوي العقول لتفلحوا وتفوزوا برضوان الله والنعيم المقيم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ أي لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها إن ظهرت لكم ساءتكم قال الزمخشري : أي لا تُكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلّفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها[٤] ﴿وإن تسألوا عنها حين يُنزّل القرآن تُبد لكم﴾ أي وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف التي تسؤكم فلا تسألوا عنها[٥] ﴿عفا الله عنها﴾ أي عفا الله عن مسائلكم السالفة التي لا ضرورة لها وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية فلا تعودوا إلى مثلها ﴿والله غفور حليم﴾ أي واسع المغفرة عظيم الفضل والإحسان ولذلك عفا عنكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿قد سألها قوم من قبلكم﴾ أي سأل أمثال هذه المسائل قومٌ قبلكم فلما أعطوها وفُرضت عليهم كفروا بها ولهذا قال ﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾ أي صاروا بتركهم العمل بها كافرين وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أُمروا بها تركوها فهلكوا ﴿ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حام﴾ كان أهل الجاهلية إذا أُنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها

(١) البحر ٤/ ٢٧ . (٢) القرطبي ٦/ ٣٢٧ . (٣) البحر ٤/ ٢٧ . (٤) الكشاف ١/ ٥٣٣ (٥) وقال ابن عباس في تفسير الآية : لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم إما لتكليف شرعي يلزمكم ، وإما لخبر يسوءكم مثل الذي قال أين أبي ؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتدأكم ربكم بأمر فحينئذ إن سألتم عن بيانه بيّن لكم وأبدى . نقلاً عن البحر المحيط ٤/ ٣١ .

يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ

ذكر بحروا أذنها أي شقوها وحرموا ركوبها وهي البحيرة ، وكان الرجل يقول : إذاقدمتُ من سفري أو برئتُ من مرضي فناقتي سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها ، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وهي الوصيلة ، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره وهو الحام ، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادات كلها فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام.﴿ولكنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ أي ولكنَّ الذين كفروا بالله يختلقون الكذب على الله وينسبون التحريم إليه فيقولون الله أمرنا بهذا وأكثرهم لا يعقلون أن هذا افتراء لأنهم يقلّدون فيه الآباء ولهذا قال تعالى:﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الضالين هلموا إلى حكم اللهورسوله فيما حلّلتم وحرّمتم ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي يكفينا دين آبائنا ﴿أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ الهمزة للإنكار والغرض التوبيخ أي أيتبعون آباءهم فيما هم عليه من الضلال ولو كانوا لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون إلى الحق ؟ ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم﴾ أي احفظوها عن ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب والزموا إصلاحها ﴿لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم﴾ أي لا يضركم ضلال من ضلَّ من الناس إذا كنتم مهتدين قال الزمخشري : كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام فقيل لهم عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشي بها في طرق الهدى لا يضركم الضلاّل عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات﴾[1] وقال أبو السعود : ولا يتوهمنّ أحدٌ أنّ في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن من جملة الاهتداء أن ينكر وقد روي أن الصدّيق قال يوماً على المنبر : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ قال : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه عمّهم الله بعقابه[2] ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ أي مصيركم ومصير جميع الخلائق إلى الله ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيجازيكم بأعمالكم قال البيضاوي : هذا وعدٌ ووعيد للفريقين ، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموتُ حين الوصية﴾ أي يا أيها المؤمنون إذا شارف أحدكم على الموت

(١) الكشاف ١/ ٥٣٤

(٢) أبو السعود ٢/ ٦٥ ويؤيده حديث (ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك) أخرجه الحاكم .

ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

وظهرت علائمه فينبغي أن يُشهد على وصيته ﴿اثنان ذوا عدلٍ منكم أو آخران من غيركم﴾ أي يُشهد على الوصية شخصين عدلين من المسلمين أو اثنان من غير المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أي إن أنتم سافرتم فقاربكم الأجل ونزل بكم الموت ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة﴾ أي توقفونهما من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس وكذا فعل رسول الله ﷺ استحلف عديّاً وتميماً بعد العصر عند المنبر ﴿فيقسمان بالله إن ارتبتم﴾ أي يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادتهما قال أبو السعود : أي إن ارتاب بهما الوارث منكم بخيانةٍ وأخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله[1] ﴿لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى﴾ أي يحلفان بالله قائلَين : لا نحابي بشهادتنا أحداً ولا نستبدل بالقسم بالله عرضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذبين من أجل المال ولو كان من نُقسم له قريباً لنا ﴿ولا نكتم شهادة الله إنّا إذاً لمن الآثمين﴾ أي ولا نكتم الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها إنّا إن فعلنا ذلك كنا من الآثمين ﴿فإن عُثر على أنهما استحقا إثماً﴾ أي فإن اطُّلع بعد حلفهما على خيانتهما أو كذبهما في الشهادة ﴿فآخران يقومان مقامهما من الذين استحقَّ عليهم الأَوْليان﴾ أي فرجلان آخران من الورثة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنين وليكونا من أولى من يستحق الميراث ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحقُّ من شهادتهما﴾ أي يحلفان بالله لشهادتنا أصدق وأولى بالسماع والاعتبار من شهادتهما لأنهما خانا ﴿وما اعتدينا إنا إذاً لمن الظالمين﴾ أي وما اعتدينا فيما قلنا فيهما من الخيانة إنّا إذا كذبنا عليهم نكون من الظالمين ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي ذلك الحكم أقرب أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا تبديل ﴿أو يخافوا أن تُردَّ أيمانٌ بعد أيمانهم﴾ أي يخافوا أن يحلف غيرهم بعدهم فيفتضحوا ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ أي خافوا ربكم وأطيعوا أمره ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي والله لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى جنته ورحمته .

البَـــلاَغـَــة :١ـ ﴿الهدي والقلائد﴾ عطفُ القلائد على الهدي من عطف الخاص على العام، خُصّت

---

(١) ابو السعود ٢/ ٦٦ .

بالذكر لأن الثواب فيها أكثر،وبهاء الحج بها أظهر .

٢ ـ ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ أطلق المصدر البلاغ وأراد به التبليغ للمبالغة .

٣ ـ ﴿الخبيث والطيب﴾ بينهما طباقٌ ، وبين ﴿أصابتكم مصيبة﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية .

٤ ـ ﴿شهادة بينكم﴾ جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى يراد منها الأمر أي ليشهد بينكم .

الفَــوَائِــد : قال الإمام الشاطبي : الإكثار من الأسئلة مذموم وله مواضع نذكر منها عشرة :

أحدها : السؤال عما لا ينفع في الدين كسؤال بعضهم : من أبي ؟

ثانيها : أن يسأل ما يزيد عن الحاجة كسؤال الرجل عن الحج : أكلَّ عام ؟

ثالثها : السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ويدل عليه : « ذروني ما تركتكم » .

رابعها : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها كما جاء في النهي عن الأغلوطات .

خامسها : ان يسأل عن علة الحكم في التعبدات كالسؤال عن قضاء الصوم للحائض دون الصلاة .

سادسها : أن يبلغ بالسؤال حدّ التكلف والتعمق كسؤال بني إسرائيل عن البقرة وما هي وما لونها ؟

سابعها : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي ولذلك قال سعيد : أعراقي أنت ؟

ثامنها : السؤال عن المتشابهات ومن ذلك سؤال مالك عن الاستواء فقال:الاستواء معلوم..الخ.

تاسعها : السؤال عما حصل بين السلف وقد قال عمر بن عبد العزيز : تلك دماء كف الله عنها يدي فلا ألطّخ بها لساني .

عاشرها : سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام ففي الحديث : أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يوم يجمع اللـه الرسل فيقول ماذا أُجبتم . . . إلى . . آخر السورة الكريمة﴾ .

من آية (١٠٩) إلى نهاية اية (١٢٠) .

المُنَاسَبَة : لمّا ذكر تعالى الوصية عند دنوّ الأجل وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة ، أعقبه بذكر اليوم المهول المخيف وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين للجزاء والحساب ، ثم ذكر المعجزات التي أيّد بها عبده ورسوله « عيسى » ومنها المائدة من السماء ، وختم السورة الكريمة ببراءة السيد المسيح من دعوى الألوهية .

(١) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٢١٧٦ .

* يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ
يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ
وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ
فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ

اللغــة : ﴿كففتُ﴾ منعتُ وصرفتُ ومنه الكفيف لأنه منع الرؤية ﴿أيدتك﴾ قوّيتك مأخوذ من الأيْد وهو القوة ﴿أوحيت﴾ الوحي : إلقاء المعنى الى النفس خفية وهو على أقسام : وحيٌ بمعنى الإلهام ووحيٌ بمعنى الإعلام في اليقظة والمنام ، ووحيٌ بمعنى إرسال جبريلَ إلى الرسل عليهم السلام[١] ﴿مائدة﴾ المائدة : الخُوان الذي عليه الطعام أي السُّفرة فإن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة[٢] ﴿الرقيب﴾ المراقب الشاهد على الأفعال ﴿أبداً﴾ أي بلا انقطاع .

التفسيــر : ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ أي اذكروا أيها الناس ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة حين يجمع الله الرسل والخلائق للحساب والجزاء ﴿فيقول ماذا أجبتم﴾ أي ما الذي أجابتكم به أممكم ؟ وما الذي ردَّ عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى الإيمان والتوحيد ؟ ﴿قالوا لا علم لنا﴾ أي لا علم لنا إلى جنب علمك قال ابن عباس : أي لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا[٣] ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ أي تعلم ما لا نعلم ممّا ظهر وبطن قال أبو السعود : وفيه إظهارٌ للشكوى وردٌّ للأمر إلى علمه تعالى بما لقوا من قومهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاءٌ إلى ربهم في الانتقام منهم[٤] ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليكَ وعلى والدتك﴾ قال ابن كثير : يذكر تعالى ما منَّ به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام بما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات أي اذكر نعمتي عليك في خلقي إياك من أمّ بلا ذكر وجعلي إيّاك آية قاطعة على كمال قدرتي ، وعلى والدتك حيث جعلتك برهاناً على براءتها ممّا اتهمها به الظالمون من الفاحشة[٥] وقال القرطبي : هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال : اذكر يوم يجمع الله الرسل وإذ يقول لعيسى كذا[٦] وذكر بلفظ الماضي ﴿إذ قال﴾ تقريباً للقيامة لأن ما هو آتٍ قريب ﴿إذْ أيّدتك بروح القُدُس﴾ أي حين قوّيتك بالروح الطاهرة المقدسة « جبريل » عليه السلام ﴿تكلّمُ الناس في المهد وكهلاً﴾ أي تكلّم الناس في المهد صبيّاً وفي الكهولة نبياً ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيلَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين علمتك الكتابة والحكمة وهي العلم النافع مع التوراة والإنجيل ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني﴾ أي واذكر أيضاً حين كنت تصوّر الطين كصورة الطير

---

(١) القرطبي ٦/ ٣٦٣ . (٢) البحر ٤/ ٣٠ . (٣) القرطبي ٦/ ٣٦١ قال ابن كثير : وهذا من باب التأدب مع الرب جل جلاله أي لا علم بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء فأنت المطّلع على كل شيء فعلمنا كَلاَ شيء بالنسبة لعلمك المحيط .
(٤) أبو السعود ٢/ ٧٠ . (٥) ابن كثير ١/ ٥٦١ . (٦) القرطبي ٦/ ٣٦٢ .

بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

بتيسيري وأمري **﴿فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾** أي فتنفخ في تلك الصورة والهيئة فتصبح طيراً بأمر الله ومشيئته **﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾** أي تشفي الأعمى الذي لا يبصر والأبرص الذي استعصى شفاؤه بأمري ومشيئتي **﴿وإذ تُخرج الموتى بإذني﴾** أي تحيي الموتى بأمري ومشيئتي ، وكرر لفظ **﴿بإذني﴾** مع كل معجزة رداً على من نسب الربوبية إلى عيسى ولبيان أن تلك الخوارق من جهته سبحانه أظهرها على يديه معجزة له **﴿وإذ كففتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات﴾** أي واذكر حين منعتُ اليهود من قتلك لمّا همّوا وعزموا على الفتك بك حين جئتهم بالحجج والمعجزات **﴿فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾** أي قال الذين جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك ما هذه الخوارق إلا سحرٌ ظاهر واضح **﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريّين أن آمنوا بي وبرسولي﴾** وهذا أيضاً من الامتنان على عيسى أي واذكر حين أمرتُ الحواريين وقذفت في قلوبهم أن صدّقوا بي وبرسولي عيسى بن مريم **﴿قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾** أي قال الحواريون صدّقنا يا رب بما أمرتنا واشهد بأننا مخلصون في هذا الايمان خاضعون لأمر الرحمن **﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء﴾** أي واذكر حين قال الحواريون يا عيسى هل يقدر ربك على إنزال مائدة من السماء علينا ؟ قال القرطبي : وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل ويجوز أن يكون ذلك صدر ممن كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى **﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾**[1] وقال أبو حيان : وهذا اللفظ يقتضي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن ينزّل مائدة من السماء وهذا ما ذهب إليه الزمخشري[2] وأما غيره من أهل التفسير فأطبقوا على أن الحواريين كانوا مؤمنين وهم خواص عيسى وأنهم لم يشكّوا في ذلك حتى قال الحسن : لم يشكوا في قدرة الله وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزّل أم لا ؟ فإن كان ينزّل فاسأله لنا[3] فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت **﴿قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** أي اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى **﴿قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا﴾** أي قال الحواريون نريد بسؤالنا المائدة أن نأكل منها تبركاً وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين **﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾** أي ونعلم علماً

(١) القرطبي ٦/ ٣٦٤ . (٢) قال الزمخشري : فإن قلت : كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم ؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما فدعواهم كانت باطلة وإنهم شاكين وهذا كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ! الكشاف ١/ ٥٤٠ . (٣) البحر ٤/ ٥٣ .

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ

يقيناً لا يحوم حوله شائبة من الشك بصدقك في دعوى النبوة ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ أي نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾ أجابهم عيسى إلى سؤال المائدة لإلزامهم بالحجة الدامغة وروي أنه لما أراد الدعاء لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويدعو ربه ويبكي قال أبو السعود : نادى عيسى ربه مرتين : مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع[١] ﴿تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ أي يكون يوم فرح وسرور لنا ولمن يأتي بعدنا ﴿وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ أي ودلالة وحجة شاهدة على صدق رسولك وارزقنا يا ألله فإنك خير من يعطي ويرزق لأنك الغني الحميد ﴿قال الله إني منزّلها عليكم﴾ أي أجاب الله دعاءه فقال إني سأُنزل عليكم هذه المائدة من السماء ﴿فمن يكفر بعد منكم فإني أُعذبه عذاباً لا أُعذبه أحداً من العالمين﴾ أي من كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذبه عذاباً شديداً لا أُعذّب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر وفي الحديث (أُنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأُمروا ألا يدّخروا لغدٍ ولا يخونوا فخانوا وادخروا ورفعوا لغدٍ فمسخوا قردة وخنازير)[٢] قال في التسهيل : جرت عادة الله عز وجل بعقاب من كفر بعد اقتراح آية فأُعطيها ، ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم الله خنازير[٣] ﴿وإذ قال اللهُ يا عيسى ابن مريم أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأُمي إلٰهين من دون الله﴾ هذا عطف قصة على قصة ﴿إذ قال الحواريون﴾ ﴿وإذ قال الله يا عيسى﴾ قال ابن عباس : هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل[٤] والمعنى : اذكر للناس يوم يخاطب الله عبده ورسوله عيسى بن مريم في الآخرة توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم قائلاً : يا عيسى أأنت دعوت الناس إلى عبادتك والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك ؟! قال القرطبي : إنما سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادّعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع[٥] ﴿قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي أنزهك عما لا يليق بك يا رب فما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿إن كنت قلتُه فقد علمته﴾ أي إن كان ذلك صدر مني فإنك لا يخفى عليك شيء وأنت العالم بأني لم أقله ، وهذا اعتذارٌ وبراءة من ذلك القول ومبالغةٌ في الأدب وإظهار الذلّة والمسكنة في حضرة ذي الجلال ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ أي تعلم حقيقة

(١) أبو السعود ٢/٧٣ . (٢) أخرجه الترمذي في باب التفسير . (٣) التسهيل ١/١٩٤ . (٤) البحر ٤/٥٨ . (٥) القرطبي ٦/٣٧٥ .

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

ذاتي وما انطوت عليه ولا أعلم حقيقة ذاتك وما احتوت عليه من صفات الكمال إنك أنت العالم بالخفايا والنوايا وعلمك محيط بما كان وما يكون ﴿ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به﴾ أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به قال الرازي : وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معاً ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي قلت لهم اعبدوا الله خالقي وخالقكم فأنا عبد مثلكم ﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم﴾ أي كنت شاهداً على أعمالهم حين كنتُ بين أظهرهم ﴿فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم﴾ أي فلما قبضتني إليك بالرفع إلى السماء كنت يا ألله الحفيظ لأعمالهم ، والشاهد على أفعالهم ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ أي وأنت المطّلع على كل شيء لا يخفى عليك شيء ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ أي إن تعذبهم فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك أنت الغالب على أمره الحكيم في صنعه ﴿قال اللهُ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ أي يوم القيامة ينفع الصادقين في الدنيا صدقُهم لأنه يوم الجزاء ﴿لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ أي لهم جنات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ورضوا عن الله فيما أثابهم وجازاهم ذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنات النعيم ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره ومشيئته وهو القادر على كل شيء .

تنبيـه : روى الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿ربّ إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وقول عيسى ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه وقال : اللّهم أمتي أمتي وبكى فقال الله تعالى يا جبريل : اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فاسأله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله يا جبريل : اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك » .

* * *

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المائدة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول « العقيدة وأصول الإيمان » وهي تختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية التي سبق الحديث عنها كالبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، فهي لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصوم والحج والعقوبات وأحكام الأسرة، ولم تذكر أمور القتال ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام، كما لم تتحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا على المنافقين ، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة والإيمان ، وهذه القضايا يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ قضية الألوهية ٢ ـ قضية الوحي والرسالة ٣ ـ قضية البعث والجزاء .

* نجد الحديث في هذه السورة مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية ، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة ، والدلائل الباهرة ، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين . ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من السور هما : ١ ـ أسلوب التقرير ٢ ـ أسلوب التلقين .

* **أما الأول**: «أسلوب التقرير» فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته ، وسلطانه وقهره ، في صورة الشأن المسلَّم ، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحسّ الحاضر في القلب الذي لا يماري فيه قلب سليم ولا عقل راشد في أنه تعالى المبدع للكائنات صاحب الفضل والإنعام فيأتي بعبارة « هو » الدالة على الخالق المدبر الحكيم ، استمع قوله تعالى ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ .. ﴿وهو الله في السموات والأرض﴾ .. ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ .. ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ .. ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ...﴾ الخ .

* **أما الثاني**: «أسلوب التلقين» فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه ، وتملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها ، ويأتي هذا

الأسلوب بطريق السؤ ال والجواب يسألهم ثم يجيب استمع إلى الآيات الكريمة ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة﴾ . . ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ . . ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَنْ إله غير الله يأتيكم به﴾ . . ﴿وقالوا لولا نُزِّل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن يُنزِّل آية ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل .

ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية[1] ، تقرر حقائقها ، وتثبّت دعائمها ، وتفنّد شبه المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة ، فهي تذكر توحيد الله جلَّ وعلا في الخلق والإيجاد ، وفي التشريع والعبادة ، وتذكر موقف المكذبين للرسل وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين ، وتذكر شبههم في الوحي والرسالة ، وتذكر يوم البعث والجزاء ، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والآفاق ، وفي الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء . . وتذكر أبا الأنبياء إبراهيم وجملة من أبنائه الرسل وترشد الرسول ﷺ إلى اتباع هداهم وسلوك طريقهم في احتمال المشاق وفي الصبر عليها ، وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر، وتفيض في هذا بألوان مختلفة ثم تعرض لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم وتقضي عليه بالتفنيد والإبطال ، ثم تختم السورة بعد ذلك - في ربع كامل - بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السابقة ، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين ﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم . .﴾ الآية وتنتهي بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة . وهو أنه خليفةٌ في الأرض ، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله ، ويقوم اللاحق منها مقام السابق ، وأن الله سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي « الابتلاء والاختبار » في القيام بتبعات هذه الحياة ، وذلك شأن يرجع إليه كماله المقصود من هذا الخلق وذلك النظام ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ .

التسمية : سميت بـ « سورة الأنعام » لورود ذكر الأنعام فيها ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . .﴾ ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها ، ومن خصائصها ما روي عن ابن عباس أنه قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملةً واحدة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح[2] .

* * *

---

(١) يقول الإمام الرازي : « امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة : أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة ، وثانيهما أنه شيّعها سبعون ألفاً من الملائكة ، والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين » ويقول الإمام القرطبي : إن هذه السورة أصلٌ في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة . (٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٢٣٢ .

قال الله تعالى : ﴿الحمد لله الذي خلق السَّمٰوات والأرضَ . . إلى . . وهو الحكيم الخبير﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٨) .

اللغــة : ﴿يعدلون﴾ يسوّون به غيره ويجعلون له عِدْلاً وشريكاً يقال : عدل فلاناً بفلان أي سواه به ﴿تمترون﴾ تشكّون يقال امترى في الأمر إذا شك فيه ﴿قرن﴾ القرن : الأمة المقترنة في مدةٍ من الزمان ومنه حديث (خير القرون قرني) وأصل القرن مائة سنة ثم أصبح يطلق على الأمة من الناس التي تعيش في ذلك العصر قال الشاعر :

إذا ذهب القرنُ الذي كنتَ فيهم وخُلِّفت في قرن فأنت غريب[1]

﴿مدراراً﴾ غزيرة دائمة ﴿قرطاس﴾ القرطاس : الصحيفة التي يكتب فيها ﴿لبَسْنا﴾ خلطنا يقال لَبسْتُ عليه الأمر أي خلطته عليه حتى اشتبه ﴿حاق﴾ نزل بهم وأصابهم ﴿وليـاً﴾ ناصراً ومعيناً .

سَبَبُ النّزول : روي أن مشركي مكة قالوا : يا محمد والله لا نؤ من لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله فأنزل الله ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾[2] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى

التفسير : ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ بدأ تعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد فلا نِدَّ له ولا شريك ، ولا نظير ولا مثيل ومعنى الآية : احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السموات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع ، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة ، بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر، وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة ، ومسالكه متنوعة، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منوّر الأكوان قال في التسهيل : وفي الآية ردٌّ على المجوس في عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار ، وقولهم إن الخير من النور والشر من الظلمة ، فإن المخلوق لا يكون إلهاً ولا فاعلاً لشيء من الحوادث[3] ﴿ثم الذين كفروا بربهم

(١) القرطبي ٦/ ٣٩١ . (٢) أسباب النزول ص ١٢٢ . (٣) التسهيل ٢/٢ .

﴿ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ﴾

يعدلـو ن﴾ أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهـم فيساوون به أصناماً نحتـوها بأيديهم ، وأوهاماً ولّدوها بخيالهم ، ففي ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم قال ابن عطية : والآية دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرها قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتُك وأكرمتُك وأحسنتُ إليك ثم تشتمني ؟ أي بعد وضوح هذا كله[1] **﴿هو الـذي خلقكـم من طيـن﴾** أي خلق أباكم آدم من طين **﴿ثـم قضـى أجـلاً﴾** أي حكم وقدَّر لكم أجلاً من الزمن تموتون عند انتهائه **﴿وأجلٌ مسمّى عنده﴾** أي وأجلٌ آخر مسمّى عنده لبعثكم جميعاً ، فالأجل الأول الموتُ والثاني البعثُ والنشور **﴿ثم أنتـم تمتـرون﴾** أي ثم أنتم أيها الكفار تشكّون في البعث وتنكرونه بعد ظهور تلك الآيات العظيمة **﴿وهـو الله في السموات وفـي الأرض﴾** أي هو الله المعظّم المعبود في السموات والأرض قال ابن كثير : أي يعبده ويوحده ويقر له بالألوهية من في السموات والأرض ويدعونه رغباً ورهباً ويسمونـه اللـه[2] **﴿يعلـم سركـم وجهركـم﴾** أي يعلـم سركم وعلَنكم **﴿ويعلـم ما تكسبو ن﴾** أي من خير أو شر وسيجاز يكم عليه ، ثم أخبر تعالى عن عنادهم وإعراضهـم فقـال **﴿ومـا تأتيهـم من آيـة من آيات ربهـم﴾** أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن **﴿إلا كانوا عنهـا معرضيـن﴾** أي إلاّ تركوا النظر فيها ولم يلتفتوا إليها قال القرطبي : والمراد تركهم النظر في الآيات التي يجب ان يستدلوا بها على توحيد الله عز وجل ، والمعجزات التي أقامها لنبيهﷺ التى يستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به عن ربه[3] **﴿فقـد كذبـوا بالحـق لما جاءهـم﴾** أى كذبوا بالقرآن الذي جاءهم من عند الله **﴿فســوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئــو ن﴾** أى سوف يحل بهم العقاب ان عاجلاً أو آجلاً ويظهر لهم خبر ما كانوا به يستهزئون ، وهذا وعيدٌ بالعذاب والعقاب على استهزائهم ، ثم حضهم تعالى على الاعتبار بمن سبقهم من الأمم فقال **﴿ألـم يروا كم أهلكنـا من قبلهم من قرن﴾** أي ألا يعتبرون بمن أهلكنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم الأنبياء ألم يعرفوا ذلك ؟ **﴿مكنّاهـم فـي الأرض ما لم نمكّـنْ لكـم﴾** أي منحناهم من أسباب السعة والعيش والتمكين في الأرض ما لم نعطكم يا أهل مكة **﴿وأرسلنـا السماء عليهم مدراراً﴾** أي أنزلنا المطر غزيراً متتابعاً يدرُّ عليهم درّاً **﴿وجعلنا الأنهار تجـري**

(١) البحر المحيط ٦٨/٦ (٢) ابن كثير ٥٦٨/١ (٣) القرطبي ٣٩٠/٦ .

بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ

من تحتهم﴾ أي من تحت أشجارهم ومنازلهم حتى عاشوا في الخِصب والريف بين الأنهار والثمار **﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾** أي فكفروا وعصوا فأهلكناهم بسبب ذنوبهم ، وهذا تهديد للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم في الأرض **﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾** أي أحدثنا من بعد إهلاك المكذبين قوماً آخرين غيرهم قال أبو حيان : وفيه تعريض للمخاطبين بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم[1] **﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس﴾** أي لو نزّلنا عليك يا محمد كتاباً مكتوباً على ورقٍ كما اقترحوا **﴿فلمسوه بأيديهم﴾** أي فعاينوا ذلك ومسّوه باليد ليرتفع عنهم كل إشكال ويزول كل ارتياب **﴿لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾** أي لقال الكافرون عند رؤية تلك الآية الباهرة تعنتاً وعناداً ما هذا إلا سحرٌ واضح ، والغرضُ أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدلائل **﴿وقالوا لولا أُنزل عليه ملك﴾** أي هلاّ أنزل على محمد ملك يشهد بنبوته وصدقه و **﴿لولا﴾** بمعنى هلاّ للتحضيض قال أبو السعود : أي هلاّ أُنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبيّ وهذا من أباطيلهم المحقّقة وخرافاتهم الملفّقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيَل وعييت بهم العلل[2] **﴿ولو أنزلنا ملكاً لقُضي الأمر﴾** أي لو أنزلنا الملك كما اقترحوا وعاينوه ثم كفروا لحقّ إهلاكهم[3] كما جرت عادة الله بأن من طلب آية ثم لم يؤمن أهلكه الله حالاً **﴿ثم لا يُنظرون﴾** أي ثم لا يُمهلون ولا يؤخرون ، والآية كالتعليل لعدم إجابة طلبهم ، فإنهم - في ذلك الإقتراح - كالباحث عن حتفه بظِلْفه **﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾** أي لو جعلنا الرسول ملكاً لكان في صورة رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته **﴿وللَبسْنا عليهم ما يلْبِسون﴾** أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم ، فإنهم لو رأوا الملك في صورة إنسان قالوا هذا إنسانٌ وليس بملك قال ابن عباس : لو أتاهم ملكٌ ما أتاهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور[4] ، ثم قال تعالى تسلية للنبي ﷺ **﴿ولقد استهزىء برسلٍ من قبلك﴾** أي والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم **﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾** أي أحاط ونزل بهؤلاء المستهزئين بالرسل عاقبة استهزائهم ، وفي هذا الإخبار تهديد للكفار **﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا**

(١) البحر المحيط ٤/ ٧٧ . (٢) أبو السعود ٢/ ٨٣ . (٣) وقيل : المعنى لو أنزلنا ملكاً لماتوا من هول رؤيته إذ لا يطيقون رؤيته وهو منقول عن ابن عباس كذا في القرطبي ٦/ ٢٩٣ . (٤) ابن كثير ١/ ٥٦٩ المختصر .

يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين الساخرين : سافروا في الأرض فانظروا وتأملوا ماذا حلّ بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب لتعتبروا بآثار من خلا من الأمم كيف أهلكهم الله وأصبحوا عبرةً للمعتبرين **﴿قل لمن ما في السموات والأرض﴾** أي قل يا محمد لمن الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتصرفاً؟ والسؤال لإقامة الحجة على الكفار فهو سؤال تبكيت **﴿قل لله﴾** أي قل لهم تقريراً وتنبيهاً هي لله لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة لأنه خالق الكل إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾** أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً وإحساناً والغرضُ التلطف في دعائهم إلى الإيمان وإنابتهم إلى الرحمن **﴿ليجمعنكم[1] إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾** أي ليحشرنكم من قبوركم مبعوثين إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه ليجازيكم بأعمالكم **﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾** أي أضاعوها بكفرهم وأعمالهم السيئة في الدنيا فهم لا يؤمنون ولهذا لا يقام لهم وزن في الآخرة وليس لهم نصيب فيها سوى الجحيم والعذاب الأليم **﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾** أي لله عز وجل ما حلّ واستقر في الليل والنهار الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه . والمراد عموم ملكه تعالى لكل شيء **﴿وهو السميع العليم﴾** أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم **﴿قل أغير الله أتخذ ولياً﴾** الاستفهام للتوبيخ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أغير الله أتخذ معبوداً ؟ **﴿فاطر السموات والأرض﴾** أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق **﴿وهو يُطعم ولا يُطعم﴾** أي هو جل وعلا يرْزق ولا يُرْزَق قال ابن كثير: أي هو الرازق لخلقه من غير احتياج إليهم[2] **﴿قل إني أمرتُ أن أكون أوّلَ من أسلم﴾** أي قل لهم يا محمد إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم للّه من هذه الأمة **﴿ولا تكوننَّ من المشركين﴾** أي وقيل لي : لا تكوننَّ من المشركين قال الزمخشري ومعناه : أمرتُ بالإسلام ونهيتُ عن الشرك[3] **﴿قل إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم﴾** أي قل لهم أيضاً إنني أخاف إن عبدتُ غير ربي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة **﴿من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه﴾** أي من يصرف

(١) قال أبو السعود : هذا جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوقٌ للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي والله ليجمعنكم في القبور .. الخ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٥٧٠ . (٣) الكشاف ٢/ ٧ .

عنه العذاب فقد رحمه الله ﴿وذلك هو الفوز المبين﴾ أي النجاة الظاهرة ﴿وإن يمسَسْك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو﴾ أي إن تنزل بك يا محمد شدةٌ من فقرٍ أو مرضٍ فلا رافع ولا صارف له إلا هو ولا يملك كشفه سواه ﴿وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾ أي وإن يصبك بخيرٍ من صحةٍ ونعمة فلا رادّ له لأنه وحده القادر على إيصال الخير والضر قال في التسهيل : والآية برهان على الوحدانية لانفراد الله تعالى بالضر والخير وكذلك ما بعد هذا من الأوصاف براهين ورد على المشركين[1] ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾ قال ابن كثير : أي هو الذي خضعت له الرقاب وذلّت له الجبابرة وعنت له الوجوه وقهر كل شيء وهو الحكيم في جميع أفعاله الخبير بمواضع الأشياء[2] .

البَلاَغَة : ١ - ﴿الحمد لله﴾ الصيغة تفيد القصر أي لا يستحق الحمد والثناء إلا الله رب العالمين .

٢ - ﴿جعل الظلمات والنور﴾ فيه من المحسنات البديعية الطباق .

٣ - ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ فيه استبعاد أن يعدلوا به غيره بعد وضوح آيات قدرته ووضع الرب ﴿ربهم﴾ موضع الضمير لزيادة التشنيع والتقبيح .

٤ - ﴿سركم وجهركم﴾ بينهما طباق .

٥ - ﴿من قرن﴾ أي أهل قرن فهو مجاز مرسل .

٦ - ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ أي المطر عبَّر عنه بالسماء لأنه ينزل من السماء فهو مجاز أيضاً .

٧ - ﴿استهزىء برسل﴾ تنكير رسل للتفخيم والتكثير .

٨ - ﴿السميع العليم﴾ من صيغ المبالغة .

فَائِدَة : فى القرآن العظيم خمس سور ابتدأت بـ ﴿الحمد لله﴾ وهي سورة الفاتحة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ والانعام ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ وسورة الكهف ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ وسورة سبأ ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ وسورةُ فاطر ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله . . إلى . . فلا تكوننَّ من الجاهلين﴾ من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٥) .

المُنَاسَبَة : لما أفاض جلّ ذكره في إقامة الدلائل والبراهين على قدرته ووحدانيته من أول السورة الكريمة ذكر هنا شهادته تعالى على صدق نبوة محمد عليه السلام ثم ذكر موقف الجاحدين للقرآن المكذبين للوحي ، وحسرتهم الشديدة يوم القيامة .

اللغَة : ﴿لأنذركم﴾ الإنذار : إخبار فيه تخويف ﴿فتنتهم﴾ الفتنة الاختبار ﴿أكنّة﴾ جمع

(١) التسهيل ٢/ ٤ . (٢) ابن كثير ١/ ٥٧١ .

كِنان وهو الغطاء ﴿وقـراً﴾ ثقلاً يقال وقرت أذنه إذا ثقلت أو صُمّت ﴿أساطير﴾ خرافات وأباطيل جمع أسطورة قال الجوهري الأساطير : الأباطيل والتُّرهات[1] ﴿ينـأون﴾ يبعـدون يقـال نأى عنـه إذا ابتعـد ﴿بغتة﴾ فجأة يقال : بغته إذا فَجَأه ﴿فرطنا﴾ فرّط : قصّـر مع القدرة على ترك التقصير قال أبو عبيد : فرَّط : ضيَّع ﴿أوزارهم﴾ ذنوبهم جمع وزر ﴿يزرون﴾ يحملون ﴿لهو﴾ اللهو : صرف النفس عن الجدّ إلى الهزل ، وكل ما شغلك فقد ألهاك .

سَبَبُ النّزول : أ ـ روي أن رؤساء مكة قالوا يا محمد : ما نرى أحداً يصدقك بما تقـول من أمـر الرسالة ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكرٌ ولا صفةٌ فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم ؟ فأنزل الله ﴿قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم . .﴾[2] الآية .

ب ـ عن ابن عباس أن « أبا سفيان » و« الوليد بن المغيرة » و« النضر بن الحارث » جلسـوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر : ما يقول محمد ؟ فقال أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية فأنزل الله ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه . .﴾[3] الآية .

ج ـ روي أن « الأخْنس بن شُريـق» التقى بـ « أبي جهل بن هشام » فقال له : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادقٌ هو أم كاذب ؟ فإنه ليس عندنا أحدٌ غيرنا فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب « بنو قصيّ » باللواء ، والسقـاية ، والحجابـة ، والنبـوة فماذا يكون لسائـر قريش ؟ فأنزل الله ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك . .﴾[4] الآية .

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

التفسِـير : ﴿قـل أيُّ شيء أكبـر شهـادة﴾ أي قل لهم يا محمد أي شيء أعظم شهادة حتى يشهد لي بأني صادقٌ في دعوى النبوة ؟ ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ أي أجبهم أنت وقل لهم الله يشهد لي بالرسالة والنبوة وكفى بشهادة الله لي شهادة قال ابن عباس : قال الله لنبيه محمد ﷺ قل لهم أي شيء أكبر شهادة فإن أجابوك وإلاّ فقل لهم الله شهيد بيني وبينكم[5] ﴿وأوحـي إليَّ هـذا القرآن لأنذركـم به ومـن بلـغ﴾ أي وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة قال ابن جزيّ : والمقصودُ بالآية الاستشهاد بالله ـ الذي هو أكبر شهادة ـ على صدق رسول الله ﷺ وشهادة الله بهذا هي علمه بصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ وإظهار معجزته الدالة على صدقه[6] ﴿أإنكم لتشهـدون أن مع اللـه آلهة أخـرى﴾ استفهام توبيخ أي أئنكم أيها المشركون لتقرون بوجود آلهة مع الله؟

(١) مجمع البيان ٤/ ٢٨٦ . (٢) أسباب النزول ص ١٢٢ . (٣) القرطبي ٦/ ٤١٤ .
(٤) التفسير الكبير ١٢/ ٢٠٥ . (٥) البحر ٤/ ٩٠ . (٦) التسهيل ٢/ ٥ .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ﴾

فكيف تشهدون أن مع الله آلهة أُخرى بعد وضوح الأدلة وقيام الحجة على وحدانية الله ؟ ﴿قل لا أشهد﴾ أي قل لهم لا أشهد بذلك ﴿قل إنما هو إله واحد﴾ أي قل يا محمد إنما أشهد بأن الله واحد أحدٌ ، فرد صمد ﴿وإنني بريء مما تشركون﴾ أي وأنا بريء من هذه الأصنام ، ثم ذكر تعالى أن الكفار بين جاهل ومعاند فقال ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ يعني اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا يعرفون النبي ﷺ بحليته ونعته على ما هو مذكور في التوراة والإنجيل كما يعرف الواحد منهم ولده لا يشك في ذلك أصلاً قال الزمخشري : و هذا استشهادٌ لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب وبصحة نبوته[1] ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ أي أولئك هم الخاسرون لأنهم لم يؤ منوا بمحمد ﷺ بعد وضوح الآيات ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته﴾ الاستفهام إنكاري ومعناه النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب أو كذّب بالقرآن والمعجزات الباهرة وسمّاها سحراً قال أبو السعود : وكلمة ﴿أو﴾ للإيذان بأن كلاً من الافتراء والتكذيب وحده بالغٌ غاية الإفراط في الظلم ، فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله ونفوا ما أثبته ! قاتلهم الله أنّى يؤ فكون[2] ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يفلح المفتري ولا المكذّب وفيه إشارة إلى أن مدّعي الرسالة لو كان كاذباً لكان مفترياً على الله فلا يكون محلاً لظهور المعجزات ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا﴾ أي اذكر يوم نحشرهم جميعاً للحساب ونقول لهم على رءوس الأشهاد ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ أي أين آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله ؟ قال البيضاوي : والمراد من الاستفهام التوبيخ و ﴿تزعمون﴾ أي تزعمونهم آلهة وشركاء مع الله فحذف المفعولان ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذٍ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها[3] قال ابن عباس : كل زُعم في القرآن فهو كذب[4] ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ أي لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق ﴿إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنا مشركين﴾ أي أقسموا كاذبين بقولهم والله يا ربنا ما كنا مشركين قال القرطبي : تبرءوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤ منين قال ابن عباس : يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم فإذا رأى المشركون ذلك قالوا تعالوا نقول : إنّا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين ، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون[5] ﴿أنظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ أي انظر يا محمد كيف كذبوا على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام علاّم الغيوب ، وهذا للتعجيب من كذبهم

(١) الكشاف ٢/ ٩ . (٢) أبو السعود ٢/ ٨٨ . (٣) البيضاوي ص ١٦٩ . (٥) القرطبي ٦/ ٤٠١ .

يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟

الصريح ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي تلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء ، ثم وصف تعالى حال المشركين حين استماع القرآن فقال ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ أي ومن هؤلاء المشركين من يصغي إليك يا محمد حين تتلو القرآن ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي ثقلاً وصمماً يمنع من السمع قال ابن جزي : والمعنى أن الله حال بينهم وبين فهم القرآن إذا استمعوه وعبّر بالأكنّة والوقر مبالغة[1] ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أي مهما رأوا من الآيات والحجج البيّنات لا يؤمنوا بها لفرط العناد ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك مجادلين يقولون عن القرآن ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ أي هؤلاء المشركون المكذبون ينهون الناس عن القرآن وعن اتباع محمد عليه السلام ويُبعدون هم عنه ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك قال ابن كثير : فهم قد جمعوا بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع ولا يعود وباله إلا عليهم وما يشعرون[2] ﴿ولو ترى إذ وُقفوا على النار﴾ أي لو ترى يا محمد هؤلاء المشركين إذ عرضوا على النار لرأيت أمراً عظيماً تشيب لهوله الرءوس قال البيضاوي : وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً شنيعاً[3] وإنما حذف ليكون أبلغ ما يقدره السامع ﴿فقالوا يا ليتنا نُردُّ ولا نُكذب بآيات ربنا﴾ أي تمنّوا الرجوع إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات الله ﴿ونكون من المؤمنين﴾ أي إذا رجعنا إلى الدنيا نصدّق ونؤمن بالله إيماناً صادقاً فتمنوا العودة ليصلحوا العمل ويتداركوا الزلل قال تعالى ردّاً لذلك التمني ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ أي ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفون في الدنيا من عيوبهم وقبائحهم فتمنوا ذلك ﴿ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ أي لو ردّوا ـ على سبيل الفرض لأنه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت ـ لعادوا إلى الكفر والضلال وإنهم لكاذبون في وعدهم بالايمان ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ أي

(١) التسهيل ٢/ ٦ . (٢) ابن كثير ١/ ٥٧٣ . (٣) البيضاوي ص ١٦٩ .

﴿الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۝ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ﴾

قال أولئك الكفار الفجار ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ولا بعث ولا نشور ﴿ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم﴾ أي لو ترى حالهم إذ حُبسوا للحساب أمام رب الأرباب كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعقاب ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف للتهويل من فظاعة الموقف ﴿قال أليس هذا بالحق﴾ أي أليس هذا المعاد بحق ؟ والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿قالوا بلى وربنا﴾ أي قالوا بلى والله إنه لحق ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي ذوقوا العذاب بسبب كفركم في الدنيا وتكذيبكم رسل الله ، ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار فقال ﴿قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله﴾ أي لقد خسر هؤلاء المكذبون بالبعث ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ أي حتى إذا جاءتهم القيامة فجأةً من غير أن يعرفوا وقتها قال القرطبي : سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها[1] ﴿قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾ أي قالوا يا ندامتنا على ما قصّرنا وضيّعنا في الدنيا من صالح الأعمال ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ أي والحال أنهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم قال البيضاوي : وهذا تمثيلٌ لاستحقاقهم آصار الآثام[2] وقال ﴿على ظهورهم﴾ لأن العادة حمل الأثقال على الظهور ، قال ابن جزي : وهذا كناية عن تحمل الذنوب ، وقيل إنهم يحملونها على ظهورهم حقيقة فقد رُوي أن الكافر يركبه عمله بعد أن يتمثل له في أقبح صورة ، وأن المؤمن يركب عمله بعد أن يتمثل له في أحسن صورة[3] ﴿ألا ساء ما يزرون﴾ أي بئس ما يحملونه من الأوزار ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ﴾ أي باطل وغرور لقصر مدتها وفناء لذتها ﴿وللدارُ الآخرة خيرٌ للذين يتقون﴾ أي الآخرة وما فيها من أنواع النعيم خير لعباد الله المتقين من دار الفناء لأنها دائمة لا يزول عنهم نعيمها ولا يذهب عنهم سرورها ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا ؟ ثم سلّى تعالى نبيه لتكذيب قومه له فقال ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم قال الحسن : كانوا يقولون إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ﴿فإنهم لا يكذّبونك ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي فإنهم في دخيلة نفوسهم لا يكذبونك بل يعتقدون صدقك ولكنهم يجحدون عن عناد فلا تحزن لتكذيبهم قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون فكان أبو جهل يقول : ما نكذبك يا محمد وإنك عندنا لمصدّق وإنما نكذّب ما جئتنا به[4] ﴿ولقد كذّبت رسلٌ من قبلك

---

(١) القرطبي ٦/٤١٢ . (٢) البيضاوي ص ١٦٩ . (٣) التسهيل ٢/٧ . (٤) البحر المحيط ٤/١١٢ .

﴿أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

فصبروا على ما كُذِّبوا﴾ أي صبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء ﴿وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ أي وأوذوا في الله حتى نصرهم الله ، وفي الآية إرشادٌ إلى الصبر ، ووعدٌ له بالنصر ﴿ولا مبدّل لكلمات الله﴾ قال ابن عباس : أي لمواعيد الله ، وفي هذا تقوية للوعد ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ أي ولقد جاءك بعض أخبار المرسلين الذين كُذّبوا وأُوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم فتسلَّ ولا تحزن فإن الله ناصرك كما نصرهم ﴿وإن كان كبُر عليك إعراضهم﴾ أي إن كان إعراضهم عن الإسلام قد عظم وشقّ عليك يا محمد ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض﴾ أي إن قدرت أن تطلب سرَباً ومسكناً في جوف الأرض ﴿أو سُلَّماً في السماء فتأتيهم بآية﴾ أي مصعداً تصعد به إلى السماء فتأتيهم بآيةٍ مما اقترحوه فافعل ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكوننّ من الجاهلين﴾ أي لو أراد الله لهداهم إلى الإيمان فلا تكوننّ يا محمد من الذين يجهلون حكمة الله ومشيئته الأزلية .

البَلاَغَة : ١ - ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ فيه تشبيه يسمى « المرسل المجمل » .

٢ - ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تزعمونهم شركاء .

٣ - ﴿انظر كيف كذبوا﴾ الصيغة للتعجيب من كذبهم الغريب .

٤ - ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ عبَّر بالأكنة في القلوب والوقر في الآذان وهو تمثيل بطريق الاستعارة لإعراضهم عن القرآن .

٥ - ﴿يقول الذين كفروا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل الكفر عليهم .

٦ - ﴿ينهون وينأون﴾ بينهما من المحسنات البديعية الجناس الناقص .

٧ - ﴿وإنهم لكاذبون﴾ وردت الصيغة مؤكدة بمؤكدين « إنَّ » و « اللام » للتنبيه على أن الكذب طبيعتهم .

٨ - ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ﴾ تشبيه بليغ حيث جعلت الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كقول الخنساء : « فإنما هي إقبال وإدبار » .

٩ - ﴿أفلا تعقلون﴾ الاستفهام للتوبيخ .

١٠ ـ ﴿كذبت رسلٌ﴾ تنوين رسل للتفخيم والتكثير .

تـنبيـه : قال الإمام الفخر : قوله تعالى ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ يقتضي له جواباً وقد حُذف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن ، وأشباهه كثير في القرآن والشعر ، وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ألا ترى أنك لو قلت لغلامك : والله لئن قمتُ إليك ـ وسكتَّ عن الجواب ـ ذهب فكره إلى أنواع المكروه من الضرب ، والقتل ، والكسر ، وعظم خوفه لأنه لم يدر أي الأقسام تبغي ، ولو قلت : والله لئن قمتُ إليك لأضربنك فأتيتَ بالجواب لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب ، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف[1].

* * *

قال الله تعالى : ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله . . إلى . . والله أعلم بالظالمين﴾ من آية (٣٦) إلى نهاية آية (٥٨) .

المناسبة : لما ذكر الله تعالى إعراض المشركين عن القرآن وعن الإيمان بالنبي عليه السلام ، ذكر في هذه الآيات السبب في ذلك وهو أن القرآن نور وشفاء يهتدي به المؤمنون ، وأما الكافرون فهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ، ثم ذكر اقتراح المشركين بعض الآيات وشبههم بالصم البكم الذين لا يعقلون .

اللغة : ﴿تضرعوا﴾ التضرع من الضراعة وهي الذلة يقال : ضرع فهو ضارع ﴿البأساء﴾ من البؤس وهو الفقر ﴿الضراء﴾ من الضر وهو البلاء قال القرطبي : البأساء في الأموال ، والضراء في الأبدان ، هذا قول الأكثر[2] ﴿مبلسون﴾ المبلس : اليائس من الخير من أبلس الرجل إذا يئس ومنه « إبليس » لأنه أبلس من رحمة الله عز وجل[3] ﴿دابر﴾ الدابر : الآخر ودابر القوم : خلفهم من نسلهم قال قطرب : يعني استؤصلوا وأهلكوا قال الشاعر :

فأهلكو بعذابٍ حصَّ دابرهم فما استطاعوا له صرفاً ولا انتصروا[4]

﴿يصدفون﴾ صدَف عن الشيء أعرض عنه ﴿تطرد﴾ الطرد : الإبعاد مع الإهانة ﴿الفاصلين﴾ الحاكمين .

سبب النزول : عن ابن مسعود قال : مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده « صهيب ، وخبّاب ، وبلال ، وعمّار » وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد : أرضيتَ بهؤلاء من قومك ! أفنحن نكون تبعاً لهم ! أهؤلاء الذين منّ الله عليهم ! اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم إتّبعناك فأنزل الله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه﴾ الآية[5].

(١) التفسير الكبير ١٢/ ١٩٠ . (٢) القرطبي ٦/ ٤٢٤ . (٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٣ .
(٤) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في القرطبي ٦/ ٤٢٧ . (٥) أسباب النزول ص ١٢٤ .

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

التفسير : ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ أي إنما يستجيب للإيمان الذين يسمعون سماع قبول وإصغاء ، وهنا تمَّ الكلام ثم ابتدأ فقال ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ قال ابن كثير : يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد ، وهذا من باب التهكم بهم والإزراء عليهم[1] وقال الطبري : يعني والكفار يبعثهم الله مع الموتى ، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً ، ولا يعقلون دعاءً ، ولا يفقهون قولاً ، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته ولا يتذكرون فينزجرون عن تكذيب رسل الله[2] ﴿ثم إليه يرجعون﴾ أي ثم مرجعهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ﴿وقالوا لولا نُزّل عليه آيةٌ من ربه﴾ أي قال كفار مكة هلاّ نُزّل على محمد معجزة تدل على صدقه كالناقة والعصا والمائدة قال القرطبي وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله[3] ﴿قل إن الله قادر على أن يُنزّل آية﴾ أي هو تعالى قادرٌ على أن يأتيهم بما اقترحوا ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون أن إنزالها يستجلب لهم البلاء لأنه لو أنزلها وَفْق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة ﴿وما من دابةٍ في الأرض﴾ أي ما من حيوان يمشي على وجه الأرض ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ أي ولا من طائر يطير في الجو بجناحيه ﴿إلا أممٌ أمثالكم﴾ أي إلا طوائف مخلوقة مثلكم خلقها الله وقدَّر أحوالها وأرزاقها وآجالها قال البيضاوي : والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزّل آية[4] ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي ما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئاً من أمر الدين يحتاج الناس إليه في أمورهم إلا بيّناه وقيل: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويكون المعنى: ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً فلم نكتبه[5] ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ أي يجمعون فيقضي بينهم قال الزمخشري : يعني الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض كما روي أنه يأخذ للجماء من القرناء[6] ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن صمٌ لا يسمعون كلام الله سماع قبول بكمٌ لا ينطقون بالحق خابطون

(١) ابن كثير ٢/ ٥٧٦ (٢) الطبري ١١/ ٣٤١ (٣) القرطبي ٦/ ٤١٩ (٤) البيضاوي ص ١٧٠ .
(٥) هذا اختيار الطبري والزمخشري والجلالين ورجح أبو حيان في البحر المحيط أن المراد بالكتاب القرآن العظيم ثم قال : وهذا الذي يقتضيه سياق الآية والمعنى وبه بدأ ابن عطية (٦) الكشاف ٢/ ١٦

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

في ظلمات الكفر قال ابن كثير : وهذا مثل أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع ، أبكم وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه[1] ! ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم﴾ أي من يشأ الله إضلاله يضلله ومن يشأ هدايته يرشده إلى الهدى ويوفقه لدين الإسلام ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة﴾ استفهام تعجيب أي أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى من قبلكم أو أتتكم القيامة بغتة من تدعون ؟ ﴿أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ أي أتدعون غير الله لكشف الضر عنكم؟ إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم ﴿بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ أي بل تخصونه تعالى بدعائكم في الشدائد فيكشف الضر الذي تدعونه إلى كشفه إن شاء كشفه ﴿وتنسون ما تشركون﴾ أي تتركون الآلهة فلا تدعونها لاعتقادكم أن الله تعالى هو القادر على كشف الضر وحده دون سواه ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ أي والله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرين من قبلك فكذبوهم ﴿فأخذناهم بالبأساء والضراء﴾ أي بالفقر والبؤس والأسقام والأوجاع ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي لكي يتضرعوا إلى الله بالتذلل والإنابة ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ لولا للتحضيض أي فهلا تضرعوا حين جاءهم العذاب ، وهذا عتاب على ترك الدعاء وإخبارٌ عنهم أنهم لم يتضرعوا مع قيام ما يدعوهم إلى التضرع ﴿ولكنْ قستْ قلوبهُم﴾ أي ولكن ظهر منهم النقيض حيث قست قلوبهم فلم تلن للإيمان ﴿وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ أي زين لهم المعاصي والإصرار على الضلال ﴿فلما نسوا ما ذُكّروا به﴾ أي لما تركوا ما وُعظوا به ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ أي من النعم والخيرات استدراجاً لهم ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ أي فرحوا بذلك النعيم وازدادوا بطراً ﴿أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون﴾ أي أخذناهم بعذابنا فجأة فإذا هم يائسون قانطون من كل خير ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي استؤصلوا وهلكوا عن آخرهم ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ أي على نصر الرسل وإهلاك الكافرين قال الحسن : مُكر بالقوم وربِّ الكعبة ، أُعطوا حاجتهم ثم أخذوا[2] وفي الحديث (إذا رأيتَ الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو

(١) ابن كثير ١ / ٥٧٧ (٢) مختصر ابن كثير ١ / ٥٧٨ .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

استدراج ثم قرأ ﴿فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾[1] ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المعاندين من أهل مكة أخبروني لو أذهب الله حواسكم فأصمكم وأعماكم ﴿وختم على قلوبكم﴾ أي طبع على قلوبكم حتى زال عنها العقل والفهم ﴿مَنْ إلـهٌ غيرُ اللـهِ يأتيكم بـه﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على ردّ ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ؟ ﴿انظر كيف نصرّف الآيات ثم هم يصدفون﴾ أي انظر كيف نبيّن ونوضح الآيات الدالة على وحدانيتنا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها فلا يعتبرون ﴿قل أرأيتكُم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة﴾ أي قل لهؤلاء المكذبين أخبروني إن أتاكم عذاب الله العاجل فجأة أو عياناً بالليل أوْ بالنهار ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي ما يهلك بالعذاب إلا أنتم لأنكم كفرتم وعاندتم ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لتبشير المؤمنين بالثواب ، وإنذار الكافرين بالعقاب، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحه الكافرون من الآيات ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فمن آمن بهم وأصلح عمله فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يَحزنون والمراد أنهم لا يخافون ولا يحزنون لأن الآخرة دار الجزاء للمتقين ﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسُّهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾ أي وأما المكذبون بآيات الله فيمسهم العذاب الأليم بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله قال ابن عباس : يفسقون أي يكفرون[2] ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين يقترحون عليك تنزيل الآيات وخوارق العادات لستُ أدعي أن خزائن الله مفوضةٌ إليَّ حتى تقترحوا عليَّ تنزيل الآيات ولا أدعي أيضاً أني أعلم الغيب حتى تسألوني عن وقت نزول العذاب ﴿ولا أقول لكم إني مَلَك﴾ أي ولست أدعي أني من الملائكة حتى تكلفوني الصعود إلى السماء وعدم المشي في الأسواق وعدم الأكل والشرب قال الصاوي : وهذه الآية نزلت حين قالوا له إن كنت رسولاً فاطلب من ربك أن يوسّع علينا ويغني فقرنا وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا فأخبر أن ذلك بيد الله سبحانه لا بيده[3] . والمعنى : إني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على

(١) أخرجه الإمام أحمد . (٢) زاد المسير ٣/ ٤٢ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ١٦

وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ

عدم صحة رسالتي ﴿إن أتّبع إلا ما يُوحى إليَّ﴾ أي ما أتّبع فيما أدعوكم إليه إلاّ وحي الله الذي يوحيه إليَّ ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ أي هل يتساوى الكافر والمؤمن والضال والمهتدي ؟ ﴿أفلا تتفكرون﴾ تقريعٌ وتوبيخ أي أتسمعون فلا تتفكرون ؟ ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يُحْشروا إلى ربهم﴾ أي خوِّف يا محمد بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يتوقعون عذاب الحشر قال أبو حيان : وكأنه قيل : أنذر بالقرآن من يُرجى إيمانُه وأما الكفرة المعرضون فدعهم ورأيهم[1] ﴿ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع﴾ أي ليس لهم غير الله وليٌّ ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم ﴿لعلهم يتقون﴾ أي أنذرهم لكي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه﴾ أي لا تطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء من مجلسك يا محمد الذين يعبدون ربَّهم دوماً في الصباح والمساء يلتمسون بذلك القرب من الله والدنوَّ من رضاه قال الطبري : نزلت الآية في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين قال المشركون لرسول الله ﷺ : لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك[2] وأراد النبي ﷺ ذلك طمعاً في إسلامهم ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ أي لا تؤاخذ بأعمالهم وذنوبهم كقول نوح ﴿إنْ حسابُهم إلاّ على ربي﴾ قال الصاوي : هذا كالتعليل لما قبله والمعنى لا تؤاخذ بذنوبهم ولا بما في قلوبهم إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله ، وهذا على فرض تسليم ما قاله المشركون وإلا فقد شهد الله لهم بالإخلاص بقوله ﴿يريدون وجهه﴾[3] ﴿وما من حسابك عليهم من شيء﴾ وهذا التأكيد لمطابقة الكلام والمعنى لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك فلم تطردهم ؟ وقيل إن المراد بالحساب الرزق ، والمعنى ليس رزقهم عليك ولا رزقك عليهم وإنما يرزقك وإياهم الله رب العالمين[4] ﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ أي لا تطردهم فإنك إن طردتهم تكون من الظالمين ، وهذا لبيان الأحكام وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى ﴿لئن أشركت ليحبطنَّ عملك﴾ وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله[5] ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ أي ابتلينا الغنيَّ بالفقير والشريف بالوضيع ﴿ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا﴾ أي ليقولَ الأشراف والأغنياء أهؤلاء الضعفاء والفقراء منَّ الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا !! قالوا ذلك إنكاراً واستهزاءً كقولهم ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾؟ أي الله أعلم بمن يشكر فيهديه ومن يكفر فيخزيه ، والاستفهام للتقرير ﴿وإذا جاءك

(١) البحر ٤/ ١٣٤ (٢) الطبري ١١/ ٣٧٤ (٣) حاشية الصاوي ٢/ ١٧ (٤) ذهب إلى هذا الطبري وبعض المفسرين .
(٥) القرطبي ٦/ ٤٣٤ .

عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

الذين يُؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم﴾ قال القرطبي: نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام) [1] وأمر ﷺ بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييباً لقلوبهم **﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾** أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً **﴿أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة﴾** أي خطيئة من غير قصد قال مجاهد: أي لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته ركب الأمر **﴿ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾** أي ثم تاب من بعد ذلك الذنب وأصلح عمله فإن الله يغفر له ، وهو وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح **﴿وكذلك نفصّل الآيات﴾** أي كما فصلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على ضلالات المشركين كذلك نبيّن ونوضّح لكم أمور الدين **﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾** أي ولتتوضح وتظهر طريق المجرمين فينكشف أمرهم وتستبين سبلُهم **﴿قل إني نُهيتُ أن أعبدالذين تدعون من دون الله﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إني نُهيتُ أن أعبد هذه الأصنام التي زعمتموها آلهة وعبدتموها من دون الله **﴿قل لا أتبع أهواءكم﴾** أي في عبادة غير الله ، وفيه تنبيه على سبب ضلالهم **﴿قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾** أي قد ضللت إن أتبعتُ أهواءكم ولا أكون في زمرة المهتدين **﴿قل إني على بيّنةٍ من ربي﴾** أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إليّ **﴿وكذَّبتم به﴾** أي وكذَّبتم بالحق الذي جاءني من عند الله **﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾** أي ليس عندي ما أبادركم به من العذاب قال الزمخشري : يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم **﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾** [2] **﴿إن الحكم إلا لله﴾** أي ما الحكم في أمر العذاب وغيره إلا لله وحده **﴿يقصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين﴾** أي يخبر الخبر الحق ويبينه البيان الشافي وهو خير الحاكمين بين عباده **﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به﴾** أي لو أن بيدي أمر العذاب الذي تستعجلونه **﴿لقضي الأمر بيني وبينكم﴾** أي لعجلته لكم لأستريح منكم ولكنه بيد الله قال ابن عباس : لم أهملكم ساعةً ولأهلكتكم [3] **﴿والله أعلم بالظالمين﴾** أي هو تعالى أعلم بهم إن شاء عاجلهم وإن شاء أخّر عقوبتهم ، وفيه وعيد وتهديد .

البَلاغَة : ١ - **﴿والموتى يبعثهم الله﴾** فيه استعارة لأن الموتى عبارة عن الكفار لموت قلوبهم .

---

(١) نفس المرجع ٦/٤٣٥ . (٢) الكشاف ٢ ٢٣ . (٣) زاد المسير ٣/٥٢ .

٢ ـ ﴿يطير بجناحيه﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز لأن الطائر قد يستعمل مجازاً للعمل كقوله ﴿ألزمناه طائره في عنقه﴾ .

٣ ـ ﴿صمٌ وبكمٌ﴾ تشبيه بليغ أي كالصم البكم في عدم السماع وعدم الكلام فحذفت منه الأداة ووجه الشبه .

٤ ـ ﴿إيّاه تدعون﴾ فيه قصر أي لا تدعون غيره لكشف الضر ، فهو قصر صفة على موصوف .

٥ ـ ﴿فقطع دابر﴾ كناية عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال .

٦ ـ ﴿الأعمى والبصير﴾ استعارة عن الكافر والمؤمن.

٧ ـ ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ في هاتين الجملتين من أنواع البديع ما يسمى ردّ الصدر على العجز .

فـائـدة : قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين﴾ هذا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم[1] .

فـائـدة : قال بعض المفسرين : إن الواجب في الدعاء الإخلاص به لأنه تعالى قال ﴿يريدون وجهه﴾ وهكذا جميع الطاعات لا ينبغي أن تكون لشيء من أغراض الدنيا .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . . إلى . . عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ من آية (٥٩) إلى نهاية آية (٧٣) .

المنـاسبة : لمّا أقام تعالى الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته ، أعقبه بذكر الأدلة على صفاته القدسية : علمه ، وقدرته ، وعظمته ، وجلاله ، وسائر صفات الجلال والجمال ، ثم ذكر نعمته على العباد بإنجائهم من الشدائد ، وقدرته على الانتقام ممّن خالف أمره وعصى رسله .

اللغـة : ﴿كرب﴾ الكرب : الغمُّ الذي يأخذ بالنفس ﴿شيعاً﴾ الشيعة : الفرقة تتبع الأخرى ويجمع على شيع وأشياع ﴿أبسلوا﴾ الإبسال : تسليم الإنسان نفسه للهلاك ﴿عدل﴾ فدية ﴿حميم﴾ الحميم : الماء الحار ﴿حيران﴾ الحَيْرة : التردد في الأمر لا يهتدي إلى مخرجٍ منه ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الحواس ﴿الشهادة﴾ ما كان مشاهداً ظاهراً للعيان ﴿تُحْشرون﴾ تجمعون .

(١) الكشاف ١٨/٢ .

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ ﴾

التفسير : ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ أي عند الله خزائن الغيب وهي الأمور المغيّبة الخفيّة لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ أي ويعلم ما في البر والبحر من الحيوانات جملةً وتفصيلاً وفي كل عوالم وعجائب وسعها علمه وقدرته ﴿وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها﴾ مبالغةً في إحاطة علمه بالجزئيات أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها والأرض التي تسقط عليها ﴿ولا حبةٍ في ظلمات الأرض﴾ أي ولا حبة صغيرة في باطن الأرض إلا يعلم مكانها وهل تنبت أو لا وكم تنبتُ ومن يأكلها ﴿ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين﴾ أي ولا شيءٍ فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله ومسجّل في اللوح المحفوظ[١] قال أبو حيان :[٢] وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات : بدأ أولاً بأمرٍ معقول لا ندركه نحن بالحسّ وهو ﴿مفاتح الغيب﴾ ثم ثانياً بأمرٍ ندرك كثيراً منه بالحسّ وهو ﴿البر والبحر﴾ ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علوّ والثاني سفلي وهو اختفاء حبةٍ في بطن الأرض فدل ذلك على أنه تعالى عالمٌ بالكليّات والجزئيات[٣] ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي ينيمكم بالليل ويعلم ما كسبتم من العمل بالنهار قال القرطبي : وليس ذلك موتاً حقيقةً بل هو قبض الأرواح ، قال ابن عباس : يقبض أرواحكم في منامكم[٤] ، وفي هذا اعتبار واستدلالٌ على البعث الأخروي ﴿ثم يبعثكم فيه ليُقْضى أجلٌ مسمًّى﴾ أي ثم يوقظكم في النهار لتبلغوا الأجل المسمّى لانقطاع حياتكم ، والضمير عائد على النهار لأن غالب اليقظة فيه وغالب النوم بالليل ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ أي ثم مرجعكم إليه يوم القيامة ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي يخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها إن خيراً فخيرٌ ، وإن شراً فشرٌّ ، ثم ذكر تعالى

---

(١) البحر المحيط ٤/ ١٤٦ . (٢) كتب شهيد الإسلام « سيد قطب » في تفسيره الظلال حول هذه الآية كلاماً رائعاً نجتزىء منه بعض فقرات ، قال طيّب الله ثراه « وهذه الآية صورة لعلم الله الشامل المحيط الذي لا يندُّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو ، من حي وميت ، ويابس ورطب ، إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، ووراء حدود هذا الكون المشهود ، وإن الوجدان ليرتعش وهو يرتاد أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل ، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار ، مفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو ، ويجول في مجاهل البر ، وفي غيابات البحر ، المكشوفة كلها لعلم الله ، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عدٌّ ، وعين الله على كل ورقةٍ تسقط هنا وهناك ، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله ، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض لا يند منه شيء عن علم الله المحيط ، إنها جولةٌ تدير الرءوس وتذهل العقول ، جولة في أغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول ، وهي ترسم هكذا بدقة كاملة شاملة في بضع كلمات . . . ألا إنه الإعجاز » في ظلال القرآن ٧/ ٢٤٧ . (٣) القرطبي ٧/ ٥ (٤) زاد المسير ٣/ ٥٥ .

تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ

جلال عظمته وكبريائه فقال ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ أي هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ أي ملائكة تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون قال أبو السعود : وفي ذلك حكمة جميلة ونعمة جليلة لأن المكلّف إذا علم أن أعماله تُحفظ عليه وتعرض على رءوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح[1] ﴿حتى إذا جاء أحدكُم الموتُ توفته رسلنا﴾ أي حتى إذا انتهى أجل الإنسان توفته الملائكة الموكلون بقبض الأرواح والمعنى أن حفظ الملائكة للأشخاص ينتهي عند نهاية الأجل فهم مأمورون بحفظ ابن آدم ما دام حياً فإذا انتهى أجله فقد انتهى حفظهم له ﴿وهم لا يفرّطون﴾ أي لا يقصّرون في شيء مما أُمروا به من الحفظ والتوفي ﴿ثم رُدّوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي ثم يردُّ العباد بعد البعث إلى الله خالقهم ومالكهم الذي له الحكم والتصرف والذي لا يقضي إلا بالعدل ﴿ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ أي له جل وعلا الحكم وحده يوم القيامة وله الفصل والقضاء لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن ، يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا كما ورد به الحديث وروي أنه يحاسب الناس في مقدار حلب شاة ﴿قل من ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البر والبحر ؟ ﴿تدعونه تضرعاً وخفية﴾ أي تدعون ربكم عند معاينة هذه الأهوال مخلصين له الدعاء مظهرين الضراعة ، تضرعاً بألسنتكم وخفية في أنفسكم قال ابن عباس المعنى : تدعون ربكم علانيةً وسراً قائلين ﴿لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ أي لئن خلّصتنا من هذه الظلمات والشدائد لنكوننَّ من المؤمنين الشاكرين والغرض : إذا خفتم الهلاك دعوتموه فإذا نجّاكم كفرتموه قال القرطبي : وبّخهم الله في دعائهم إيّاه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره[2] ﴿قل الله ينجّيكم منها ومن كل كرب﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ومن كل كربٍ وغمٍّ ﴿ثم أنتم تشركون﴾ تقريعٌ وتوبيخ أي ثم أنتم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه تشركون به ولا تؤمنون ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة إنه تعالى قادر على إهلاككم بإرسال الصواعق من السماء وما تلقيه البراكين من الأحجار والحُمَم وكالرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح كما فُعل بمن قبلكم ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ بالخسف والزلازل والرجفة كما فُعل

(١) أبو السعود ٢/١٠٧ . (٢) القرطبي ٧/٨ .

﴿أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾

بقارون وأصحاب مدين ﴿أو يَلْبِسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ أي يجعلكم فرقاً متحزبين يقاتل بعضكم بعضاً قال البيضاوي : أي يخلطكم فرقاً متحزبين على أهواء شتّى فينشب القتال بينكم[1] وقال ابن عباس :أي يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقاً[2]، والكل متقارب والغرض منه الوعيد ﴿انظر كيف نصرِّف الآيات لعلّهم يفقهون﴾ أي انظر كيف نبيّن ونوضّح لهم الآيات بوجوه العِبَر والعظات ليفهموا ويتدبروا عن الله آياته وبراهينه وحججه ، عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿أو يَلْبِسكم شيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله ﷺ : هذه أهون أو أيسر[3] ﴿وكذّب به قومك وهو الحق﴾ أي وكذّب بهذا القرآن قومك يا محمد ـ وهم قريش ـ وهو الكتاب المنزّل بالحق ﴿قل لستُ عليكم بوكيل﴾ أي لستُ عليكم بحفيظ ومتسلّط إنما أنا منذر ﴿لكل نبأٍ مستقر﴾ أي لكل خبرٍ من أخبار الله عز وجل وقتٌ يقع فيه من غير خُلْفٍ ولا تأخير ﴿وسوف تعلمون﴾ مبالغة في الوعيد والتهديد أي سوف تعلمون ما يحل بكم من العذاب ﴿وإذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي إذا رأيت هؤلاء الكفار يخوضون في القرآن بالطعن والتكذيب والاستهزاء ﴿فأعرضْ عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره﴾ أي لا تجالسهم وقم عنهم حتى يأخذوا في كلامٍ آخر ويدعوا الخوض والاستهزاء بالقرآن قال السدي : كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ والقرآن فسبّوه واستهزءوا به فأمرهم الله ألاّ يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره[4] ﴿وإمّا يُنسينّك الشيطان﴾ أي إن أنساك الشيطان النهي عن مجالستهم فجالستهم ثم تذكرت ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ أي لا تجلس بعد تذكر النهي مع الكفرة والفسّاق الذين يهزءون بالقرآن والدين قال ابن عباس : أي قم إذا ذكرت النهي ولا تقعد مع المشركين ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي ليس على المؤمنين شيء من حساب الكفار على استهزائهم وإضلالهم إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم ﴿ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ أي ولكنْ عليهم أن يذكّروهم ويمنعوهم عمّا هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير[5] ، ويُظهروا لهم الكراهة لعلهم يجتنبون الخوض في

(١) البيضاوي ص/ ١٧٣ . (٢) زاد المسير ٣/ ٥٩ . (٣) أخرجه البخاري . (٤) الطبري ١١/ ٤٣٧ .

(٥) ذهب الطبري إلى أن معنى الآية : ولكن ليعرضوا عنهم حينئذٍ ذكرى لأمر الله ليتقوا الله .

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

القرآن حياءً من المؤمنين إذا رأوهم قد تركوا مجالستهم قال ابن عطية : ينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدل والخوض فيه[1] ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾ أي اترك هؤلاء الفجرة الذين اتخذوا الدين الذي كان ينبغي احترامه وتعظيمه لعباً ولهواً باستهزائهم به ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم هذه الحياة الفانية حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً ﴿وذكّر به أن تُبْسل نفسٌ بما كسبت﴾ أي وذكّر بالقرآن الناس مخافة أن تُسْلم نفسٌ للهلاك وتُرهن بسوء عملها ﴿ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيع﴾ أي ليس لها ناصرٌ ينجيها من العذاب ولا شفيع يشفع لها عند الله ﴿وإن تَعْدل كل عدلٍ لا يُؤخذ منها﴾ أي وإن تُعْطِ تلك النفس كل فدية لا يقبل منها قال قتادة : لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يُقبل منها[2] ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا﴾ أي أسلموا لعذاب الله بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة ﴿لهم شرابٌ من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ أي لهؤلاء الضالين شرابٌ من ماء مغليّ يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ، ونارٌ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر فلهم مع الشراب الحميم العذاب الأليم والهوان المقيم ﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد أنعبد ما لا ينفعنا إن دعوناه ولا يضرنا إن تركناه ؟ والمراد به الأصنام ﴿ونُردُّ على أعقابنا﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ أي بعد أن هدانا الله للإسلام ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾ أي فيكون مثلنا كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقته في هوّة سحيقة ﴿حيران﴾ أي متحيراً لا يدري أين يذهب ﴿لهُ أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾ أي إلى الطريق الواضح يقولون ائتنا فلا يقبل منهم ولا يستجيب لهم ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أي قل لهؤلاء الكفار إنَّ ما نحن عليه من الإسلام هو الهدى وحده وما عداه ضلال ﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ أي أمرنا بأن نستسلم لله عز وجل ونخلص له العبادة في جميع أمورنا وأحوالنا ، وهذا تمثيلٌ لمن ضلَّ عن الهدى وهو يُدْعى إلى الإسلام فلا يُجيب قال ابن عباس : هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها وللدعاة الذين يدعون إلى الله ، كمثل رجلٍ ضلَّ عن الطريق تائهاً ضالاً إذ ناداه منادٍ يا فلان بن فلان هلُمَّ إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان هلُمَّ إلى

(١) البحر ٤/ ١٥٤ . (٢) الطبري ١١/ ٤٤٧ .

﴿وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

الطريق ، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى الى الطريق يقول : مثل من يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الهلكة والندامة[١] ﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه﴾ أي وأُمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى الله في جميع الأحوال ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ أي تجمعون إليه يوم القيامة فيجازي كل عاملٍ بعمله ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي هو سبحانه الخالق المالك المدبر للسموات والأرض ومن فيهما خلقهما بالحق ولم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ﴿يوم يقول كن فيكون﴾ أي واتقوه واتقوا عقابه والشدائد يوم يقول كن فيكون قال أبو حيان: وهذا تمثيلٌ لإخراج الشيء من العدم إلى الوجود وسرعته لا أنَّ ثَمَّ شيئاً يؤ مر[٢] ﴿قوله الحق وله الملك﴾ أي قوله الصدق الواقع لا محالة وله الملك يوم القيامة ﴿يوم يُنفخ في الصور﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية وهي نفخة الإحياء ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يعلم ما خفي وما ظهر وما يغيب عن الحواس والأبصار وما تشاهدونه بالليل والنهار ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ أي الحكيم في أفعاله الخبير بشئون عباده .

البلاغة : ١ - ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ استعار المفاتح للأمور الغيبية كأنها مخازن خزنت فيها المغيبات قال الزمخشري : جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المغلقة بالأقفال ، فهو سبحانه العالم بالمغيّبات وحده[٣] .

٢ - ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز .

٣ - ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ وضع الظاهر موضع الضمير « معهم » للتسجيل عليهم بشناعة ما ارتكبوا حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء مكان التصديق والتعظيم .

٤ - ﴿ونرد على أعقابنا﴾ عبّر بالرد على الأعقاب عن الشرك لزيادة تقبيح الأمر وتشنيعه .

٥ - ﴿تعدل كل عدل﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ - من المحسنات البديعية الطباق في كلٍ من ﴿رطبٍ ويابس﴾ و ﴿الليل والنهار﴾ و ﴿فوق

(١) الطبري ١١/ ٤٥٢ . (٢) البحر ٤/ ١٦٠ . (٣) الكشاف ٢/ ٢٤ .

وتحت﴾ و ﴿ينفعنا ويضرنا﴾ و ﴿الغيب والشهادة﴾ والسجع في ﴿شرابٌ من حميم وعذابٌ أليم﴾ والله أعلم .

تنبيه : قال الحاكم : دلّ قوله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب[١] انتهى أقول : هذا كذب وبهتان لأن الغيب لا يعلمه إلا الله .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر . . إلى . . وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾ من آية (٧٤) إلى نهاية آية (٩٤) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى الحجج الدامغة الدالة على التوحيد وبطلان عبادة الأوثان ، ذكر هنا قصة أب الأنبياء « إبراهيم » لإقامة الحجة على مشركي العرب في تقديسهم الأصنام ، فإنه جاء بالتوحيد الخالص الذي يتنافى مع الإشراك بالله ، وجميع الطوائف والملل معترفةٌ بفضل إبراهيم وجلالة قدره ، ثم ذكر شرف الرسل من أبناء إبراهيم ، وأمر رسوله بالاقتداء بهديهم الكريم .

اللغة : ﴿ملكوت﴾ ملك والواو والتاء للمبالغة في الوصف كالرَّغبوت والرَّهبوت من الرغبة والرهبة ﴿جنَّ﴾ ستره بظلمته قال الواحدي : جنَّ عليه الليلُ وأجنَّه الليل ويقال لكل ما سترته جنَّ وأجنَّ ومنه الجنَّة ، والجِنُّ والجنون ، والجنين وكل هذا يعود أصله إلى الستر والاستتار[٢] ﴿بازغاً﴾ طالعاً يقال : بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع قال الأزهري : كأنه مأخوذ من البزغ وهو الشق لأنه بنوره يشق الظلمة شقاً[٣] ﴿أفل﴾ غاب يقال : أفل أفولاً إذا غاب ﴿سلطاناً﴾ حجة ﴿يلبسوا﴾ يخلطوا يقال : لبس الأمر خلطه ولبس الثوب اكتسى به ﴿اجتبيناهم﴾ اصطفيناهم ﴿قراطيس﴾ جمع قرطاس وهو الورق قال الشاعر :

استودعَ العلمَ قرطاساً فضيَّعه فبئسَ مستودعُ العلم القراطيسُ

﴿غمرات﴾ الغمرة : الشدة المذهلة وأصله من غمرة الماء وهي ما يغطي الشيء ﴿خولناكم﴾ أعطيناكم وملكناكم والتخويل : المنح والإعطاء ﴿ضلَّ عنكم﴾ ضاع وبطل .

سَبَبُ النّزول : عن سعيد بن جبير أن « مالك بن الصَّيْف » من اليهود جاء يخاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنَّ الله يبغض الحَبْر السمين ؟ -وكان حبراً سميناً- فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى ؟ فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . .﴾[٤] الآية .

(١) محاسن التأويل ٦/٢٣٤٣ . (٢) تفسير الرازي ١٣/٤٦ .

(٣) تهذيب اللغة مادة بزغ . (٤) أسباب النزول ص ١٢٦ والقرطبي ٧/ ٣٧ .

* وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا

التفسير : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة﴾ أي واذكر يا محمد لقومك عبدة الأوثان وقت قول إبراهيم - الذي يدّعون أنهم على ملّته - لأبيه آزر منكراً عليه أتتخذ أصناماً آلهة تعبدها وتجعلها رباً دون الله الذي خلقك فسوّاك ورزقك ؟ ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ أي فأنت وقومك في ضلال عن الحق مبين واضح لا شك فيه ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ أي نُري إبراهيم المُلْك العظيم والسلطان الباهر ﴿وليكون من الموقنين﴾ أي وليكون من الراسخين في اليقين أريناه تلك الآيات الباهرة قال مجاهد : فُرجت له السموات والأرض فرأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل[1] ﴿فلمّا جنَّ عليه الليل رأى كوكباً﴾ أي فلما ستر الليلُ بظلمته كل ضياء رأى كوكباً مضيئاً في السماء هو الزهرة أو المشتري ﴿قال هذا ربي﴾ أي على زعمكم قاله على سبيل الرد عليهم والتوبيخ لهم واستدراجاً لهم لأجل أن يعرّفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله قال الزمخشري : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال ، ويعرّفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى ألا يكون شيء منها إلهاً وأن وراءها محدثاً أحدثها ، ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وقوله ﴿هذا ربي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطلٌ ، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق ثم يكرُّ عليه فيبطله بالحجة[2] ﴿فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ أي فلما غاب الكوكب قال لا أحب عبادة من كان كذلك ، لأن الرب لا يجوز عليه التغيّر والانتقال لأن ذلك من صفات الأجرام ﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾ أي فلما رأى القمر طالعاً منتشر الضوء قال هذا ربي على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم ﴿فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين﴾ أي فلما غاب القمر قال إبراهيم لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكوننَّ من القوم الضالين ، وفيه تعريضٌ لقومه بأنهم على ضلال ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾ أي هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ أي فلما غابت الشمس قال أنا بريء من إشراككم

---

(١) البحر ٤/١٦٥ . (٢) الكشاف ٢/٣١ .

وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ

وأصنامكم قال أبو حيان: لمّا أوضح لهم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون رباً ارتقب ماهو أنور منه وأضوأ فرأى القمر أول طلوعه، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ، وأكبر جرماً وأعمّ نفعاً، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبيّن أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث[١] وقال ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾[٢] ﴿إني وجهتُ وجهي﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي ﴿للذي فطر السموات والأرض﴾ أي الله الذي ابتدع العالم وخلق السموات والأرض ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿وما أنا من المشركين﴾ أي لست ممن يعبد مع الله غيره ﴿وحاجّه قومه﴾[٣] أي جادلوه وناظروه في شأن التوحيد قال ابن عباس: جادلوه في آلهتهم وخوّفوه بها فأجابهم منكراً عليهم ﴿قال أتحاجونّي في الله﴾ أي أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته ﴿وقد هدان﴾ أي وقد بصّرني وهداني إلى الحق ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ أي لا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تسمع وليست قادرة على شيء مما تزعمون ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ أي إلا إذا أراد ربي أن يصيبني شيءٌ من المكروه فيكون ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء ﴿أفلا تتذكرون﴾ استفهام للتوبيخ أي أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وفي هذا تنبيهٌ لهم على غفلتهم التامة حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع وأشركوا مع ظهور الدلائل الساطعة على وحدانيته سبحانه ﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ أي كيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة !﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزّل به عليكم سلطاناً﴾ أي وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذي أشركتم به بدون حجة ولا برهان ﴿فأيُّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ أي أيّنا أحقُّ بالأمن أنحن

---

(١) البحر المحيط ٤/١٦٧ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٥٩٢ .

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أنّ قول إبراهيم عن الكوكب ﴿هذا ربي﴾ إنما كان في حال الطفولة قبل استحكام النظر في معرفة الله جل وعلا ، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور من أن هذا القول كان في مقام المناظرة لقومه لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر ، وأن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح البراهين ، ومما يدل عليه قوله تعالى ﴿وحاجه قومه﴾ وقوله ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ فالمقام مقام مناظرة ـ كما قال الحافظ ابن كثير ـ لا مقام نظر ، وحاشا الخليل أن يشك في الرب الجليل وهو أب الأنبياء وإمام الحنفاء ، وقد ساق « الفخر الرازي » اثنتي عشرة حجة في تأييد مذهب الجمهور في تفسيره الكبير ج ١٣ ص ٤٧ وهذا اختيار أساطين المفسرين كالقرطبي والزمخشري وأبي السعود وابن كثير وصاحب البحر المحيط والله أعلم .

تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ

وقد عرفنا الله بأدلة وخصصناه بالعبادة أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتم بالواحد الديان؟ ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ أي لهم الأمن من العذاب وهم على هداية ورشاد ، روي أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها أصحاب النبي ﷺ فقالوا : وأيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ : ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يا بُنيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم﴾[1] ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ الإشارة إلى ما تقدم من الحجج الباهرة التي أيّد الله بها خليله عليه السلام أي هذا الذي احتج به إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب والشمس والقمر من أدلتنا التي أرشدناه لها لتكون له الحجة الدامغة على قومه ﴿نرفع درجاتٍ من نشاء﴾ أي بالعلم والفهم والنبوّة ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ أي حكيم يضع الشيء في محله عليم لا يخفى عليه شيء ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب﴾ أي وهبنا لإبراهيم ولداً وولد ولد لتقر عينه ببقاء العقب ﴿كلاً هدينا﴾ أي كلاً منهما أرشدناه إلى سبيل السعادة وآتيناه النبوة والحكمة قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن في السنّ وأيس من الولد ، وبُشّر بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة ، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم حين اعتزل قومه وهاجر من بلادهم لعبادة الله ، فعوّضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه لتقرَّ بهم عينه[2] ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ أي من قبل إبراهيم ، وذكر تعالى نوحاً لأنه أب البشر الثاني فذكر شرف أبناء إبراهيم ثم ذكر شرف آبائه ﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾ أي ومن ذرية إبراهيم[3] هؤلاء الأنبياء الكرام ، وبدأ تعالى بذكر داود وسليمان لأنهما جمعا الملك مع النبوة وسليمان بن داود فذكر الأب والابن ﴿وأيوب ويوسف﴾ قرنهما لاشتراكهما في الإمتحان والبلاء ﴿وموسى وهارون﴾ قرنهما لاشتراكهما في الأخوّة وقدَّم موسى لأنه كليم الله ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم نجزي من كان محسناً في عمله صادقاً في إيمانه ﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس﴾ قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ﴿كلٌّ من الصالحين﴾ أي الكاملين في الصلاح ﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً﴾ اسماعيل هو ابن إبراهيم، ويونس بن متّى ، ولوط بن هاران وهو ابن أخ إبراهيم

---

(١) الحديث أصله في الصحيحين . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٥٩٦ . (٣) الضمير في ﴿ذريته﴾ فيه قولان : قيل إنه يرجع إلى نوح واختاره الفراء وابن جرير وقيل: إنه يرجع إلى إبراهيم وهو قول عطاء واختاره أبو السعود لأن مساق الآية لبيان شئون إبراهيم العظيمة .

وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا
بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ
لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى
جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ

﴿**وكلاً فضلنا على العالمين**﴾ أي كلاً من هؤلاء المذكورين في هذه الآية فضلناه بالنبوة على عالمي عصرهم ﴿**ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم**﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعاتٍ كثيرة ﴿**واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم**﴾ أي اصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق الحق المستقيم الذي لا عوج فيه قال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادةٍ من قبل أمٍ ولا أب[1] ﴿**ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده**﴾ أي ذلك الهدى إلى الطريق المستقيم هو هدى الله يهدي به من أراد من خلقه ﴿**ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**﴾ أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو قدرهم لبطل عملهم فكيف بغيرهم؟ ﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة**﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية والحكمة الربانية والنبوة والرسالة ﴿**فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾ أي فإن يكفر بآياتنا كفار عصرك يا محمد فقد استحفظناها واسترعيناها رسلنا وأنبياءنا[2] ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ أي هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم هم الهداة المهديّون فتأس واقتد بسيرتهم العطرة ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً**﴾ أي قل يا محمد لقومك لا أسألكم على تبليغ القرآن شيئاً من الأجر والمال ﴿**إن هو إلا ذكرى للعالمين**﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظةٌ وتذكيرٌ لجميع الخلق ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ أي ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظّموه حقَّ تعظيمه ﴿**إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء**﴾ أي حين أنكروا الوحي وبعثة الرسل . والقائلون هم اليهود اللعناء تفوهوا بهذه العظيمة الشنْعاء مبالغة في إنكار نزول القرآن على محمد عليه السلام ﴿**قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين من أنزل التوراة على موسى نوراً يستضاء به وهداية لبني إسرائيل ؟ ﴿**تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً**﴾ أي تكتبونه في قراطيس مقطعة وورقات مفرقة تبدون منها ما تشاءون وتخفون ما تشاءون

(١) البحر ٢/ ١٧٣ . (٢) قيل إن المراد بهم أهل المدينة من الأنصار وهو قول ابن عباس وقيل هم النبيّون الثمانية عشر المذكورون في هذه الآية وهو قول قتادة واختيار الزجاج وابن جرير .

ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ

قال الطبري : ومما كانوا يكتمونه إياهم ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته[1] ﴿وعُلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ أي عُلّمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم ولا آباؤكم ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ أي قل لهم في الجواب : الله أنزل هذا القرآن ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه يهزءون ويلعبون ، وهذا وعيدٌ لهم وتهديد على إجرامهم ﴿وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ﴾ أي وهذا القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة ﴿مصدّق الذي بين يديه﴾ أي يصدّق كتب الله المنزّلة كالتوراة والإنجيل ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ أي لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ أي والذين يصدّقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل في أوقاتها قال الصاوي : خصّ الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات[2] ﴿ومن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً﴾ استفهام معناه النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء وأنداداً ﴿أو قال أُوحي إليّ ولم يوح إليه شيء﴾ أي زعم أن الله بعثه نبياً كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم يرسله ﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ أي ومن ادعى أنه سينظم كلاماً يماثل ما أنزله الله كقول الفجار ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ قال أبو حيان : نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين لأنه عارض القرآن بكلام سخيف لا يُذكر لسخفه[3] ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده، وجواب ﴿لو﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً عظيماً ﴿والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾ أي وملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم : خلّصوا أنفسكم من العذاب قال الزمخشري : المعنى يقولون هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم ، وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال[4] ﴿اليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي تجزون العذاب الذي

---

(١) الطبري ١١/ ٥٢٧ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣١ . (٣) البحر المحيط ٤/ ١٨٠ . (٤) الكشاف ٢/ ٣٦

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ أي بافترائكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بآيات الله فلا تتأملون فيها ولا تؤ منون ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ أي جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد حفاةً عراة غرلاً كما ورد في الحديث (أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً عُراةً غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده . .)[1] ﴿وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ أي تركتم ما أعطيناكم من الأموال في الدنيا فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ أي وما نرى معكم آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله في استحقاق العبادة ﴿لقد تقطّعَ بينكم﴾ أي تقطّع وصلكم وتشتّت جمعكم ﴿وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾ أي ضاع وتلاشى ما زعمتوه من الشفعاء والشركاء .

البَلاغَة : ١ ـ ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾ حكاية حال ماضية أي أريناه .

٢ ـ ﴿لأكوننَّ من القوم الضالين﴾ فيه تعريض بضلال قومه ، وبين لفظ ﴿الهداية والضلالة﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٣ ـ ﴿وجهتُ وجهي﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٤ ـ ﴿هدى الله﴾ الإضافة للتشريف وبين ﴿هدى﴾ و ﴿يهدي﴾ جناس الاشتقاق أيضاً .

٥ ـ ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ مبالغة في إنكار نزول شيء من الوحي على أحدٍ من الرسل .

٦ ـ ﴿من أنزل الكتاب﴾ استفهام للتبكيت والتوبيخ .

٧ ـ ﴿تبدونها وتخفون﴾ بينهما طباق .

٨ ـ ﴿أم القرى﴾ مكة المكرمة وفيه استعارة حيث شبهت بالأم لأنها أصل المدن والقرى .

٩ ـ ﴿في غمرات الموت﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة عجيبة حيث شبه سبحانه ما يعتورهم من كُرب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه وسميت غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان[2] .

---

(١) الحديث من رواية الشيخين ومعنى « غرلاً » أي غير مختونين . (٢) تلخيص البيان ص ٣٧ .

تـنبيـه : ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿آزر﴾ عم إبراهيم وليس أباه وقال آخرون : إنه اسم للصنم ، والصحيح كما قال المحققون من المفسرين أنه اسم لوالد إبراهيم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ، والآية صريحة في أن آزر كان كافراً ولا يقدح ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام وفي صحيح البخاري « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة . . » الحديث ودعوى إيمانه مرفوضة بنص الكتاب والسنة والله أعلم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الله فالق الحب والنوى . . إلى . . ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ من آية (٩٥) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة ، ذكر هنا الأدلة الدالة على وجود الخالق وكمال علمه وقدرته وحكمته ، تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله .

اللغة : ﴿فالق﴾ الفلق : الشقُّ ، وانفلق الصبح انشق ﴿سكناً﴾ السَّكن ما يسكن إليه الإنسان ويأنس به ، والسَّكن : الرحمة ﴿حُسْباناً﴾ أي بحساب قال الزمخشري : الحُسبان مصدر حَسَبَ كما أن الحِسْبان مصدر حَسِبَ ونظيره الكُفران والشُكران[١] ﴿متراكباً﴾ بعضه فوق بعض ﴿قِنوان﴾ جمع قِنْو وهو العِذقُ أي عنقود النخلة ﴿وينْعِهِ﴾ أي نُضْجه وإدراكه يقال : يَنَعت الشجرةُ وأيْنعتْ إذا نضجت ﴿خرقوا﴾ اختلقوا كذباً وإفكاً ﴿بديع﴾ مبدع وهو الخالق على غير مثال سابق ، والإبداع الإتيان بشيء لم يُسبق إليه ولهذا يقال لمن أتى في فنّ من الفنون لم يسبقه فيه غيره إنه أبدع ﴿نصرّف﴾ التصريف : نقل الشيء من حال إلى حال .

سبب النزول : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال كفار قريش لأبي طالب إمّا أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والنَّيل منها وإمّا أن نسب إلهه ونهجوه فنزلت ﴿ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عَدْواً بغير علم . . ﴾[٢] الآية وفي رواية أخرى أن المشركين قالوا يا محمد : لتنتهينّ عن سبك آلهتنا أو لنهجونّ ربك[٣] فنزلت .

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

التفسير : عاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين بعجائب الصنع ولطائف التدبير فقال سبحانه : ﴿إنَّ الله فالقُ الحبِّ والنوى﴾ أي يفلق الحبَّ تحت الأرض لخروج النبات منها ويفلق النوى لخروج الشجر منها قال القرطبي : أي يشق النواة الميتة فيُخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة[٤] ﴿يُخْرج

(١) الكشاف ٢/ ٣٩ . (٢) القرطبي ٧/ ٦١ . (٣) أسباب النزول ص ١٢٧ . (٤) القرطبي ٧/ ٤٤ .

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ

الحيَّ من الميت. ومُخْرِج الميِّت من الحيِّ﴾ أي يخرج النبات الغضَّ الطريَّ من الحبِّ اليابس، ويخرج الحبَّ اليابس من النبات الحيِّ النامي وعن ابن عباس: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر **﴿ذلكم الله فأنّى تؤفكون﴾** أي ذلكم الله الخالق المدبر فكيف تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان! **﴿فالق الإصباح﴾** أي شاقُّ الضياء عن الظلام وكاشفه قال الطبري: شقُّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده[1] **﴿وجعل الليل سكَنًا﴾** أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون **﴿والشمس والقمر حسباناً﴾** أي بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد، ويُعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار **﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾** أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم **﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾** أي خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر والبحر، وإنما امتنَّ عليهم بالنجوم لأن سالكي القفار، وراكبي البحار إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها **﴿قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾** أي بيّنا الدلائل على قدرتنا لقوم يتدبرون عظمة الخالق **﴿وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدة﴾** أي خلقكم وأبدعكم من نفسٍ واحدة هي آدم عليه السلام **﴿فمستقرٌّ ومستودعٌ﴾** قال ابن عباس: المستقرُّ في الأرحام والمستودع في الأصلاب، أي لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب آبائكم، وقال ابن مسعود: مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها[2] **﴿قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون﴾** أي بينا الحجج لقوم يفقهون الأسرار والدقائق قال الصاوي: عبّر هنا بـ **﴿يفقهون﴾** إشارة إلى أن أطوار الإنسان وما احتوى عليه أمرٌ خفيٌّ تتحير فيه الألباب، بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد، ولذا عبّر فيها بـ **﴿يعلمون﴾**[3] **﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجْنا به نباتَ كلِّ شيء﴾** أي أنزل من السحاب المطر فأخرج به كل ما ينبتُ من الحبوب والفواكه والثمار والبقول والحشائش والشجرَ قال الطبري: أي أخرجنا به ما ينبتُ به كل شيء وينمو عليه ويصلح[4] **﴿فأخرجنا منه خضِرًا﴾** أي أخرجنا من النبات شيئاً غضاً أخضر **﴿نُخرج به حباً متراكباً﴾** أي نُخرج من الخضر حباً متراكباً بعضُه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير قال ابن عباس: يريد القمح والشعير والذرة والأرز **﴿ومن النخل من طلْعها قِنوانٌ دانية﴾** أي

---

(١) الطبري ١١/ ٥٥٤. (٢) وفسر المستقرّ أيضاً بالاستقرار فوق الأرض والمستودع تحت الأرض واختار الطبري العموم.

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٤. (٤) الطبري ١١/ ٥٧٣.

مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ انظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

وأخرجنا من طلع النخل ـ والطلعُ أول ما يخرج من التمر في أكمامه ـ عناقيد قريبة سهلة التناول قال ابن عباس : يريد العراجين التي قد تدلّت من الطلع دانيةً ممن يجتنيها ﴿وجناتٍ من أعناب﴾ أي وأخرجنا بالماء بساتين وحدائق من أعناب ﴿والزيتون والرمانَ مشتبهاً وغير متشابه﴾ أي وأخرجنا به أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهاً في المنظر وغير متشابه في الطعم قال قتادة : مشتبهاً ورقُه مختلفاً ثمرُه ، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعِه﴾ أي انظروا أيها الناس نظر اعتبار واستبصار إلى خروج هذه الثمار من ابتداء خروجها إلى انتهاء ظهورها ونضجها كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون والرائحة والصغر والكبر، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مراً وبعضه مالحاً لا يُنتفع بشيء منه ، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً مستساغ المذاق ! فسبحان القدير الخلاّق !! ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس والأشكال والألوان لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يصدّقون بوجود الله قال ابن عباس : يصدّقون أن الذي أخرج هذا النبات قادرٌ على أن يحيي الموتى[1] ﴿وجعلوا لله شركاءَ الجنَّ﴾ أي وجعلوا الجنَّ شركاء لله حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿وخَلَقَهم﴾ أي وقد علموا أنه تعالى هو الذي خلقهم وانفرد بإيجادهم فكيف يجعلونهم شركاء له ؟ وهذه غاية الجهالة ﴿وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم﴾ أي واختلقوا ونسبوا إليه تعالى البنين والبنات حيث قالوا : عزيرٌ ابن الله والملائكةُ بناتُ الله سفهاً وجهالة ﴿سبحانه وتعالى عمّا يصفون﴾ أي تنزّه الله وتقدس عن هذه الصفات التي نسبها إليه الظالمون وتعالى علواً كبيراً ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي مبدعهما من غير مثالٍ سبق ﴿أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي كيف يكون له ولد وليس له زوجة ؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾ أي وما من شيء إلا هو خالقه والعالم به ومن كان كذلك كان غنياً عن كل شيء قال في التسهيل : والغرض الرد على من نسب لله الولد من وجهين : أحدهما أن الولد لا يكون إلا من جنس والده والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد ، والثاني : أن الله خلق السموات والأرض ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن كل شيء[2] ثم أكّد تعالى على وحدانيته وتفرده بالخلق والإيجاد فقال ﴿ذلكم

(١) تفسير الجوزي ٣/ ٩٦. (٢) التسهيل ٢/ ١٨.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا﴾

الله ربكم لا إله إلا هو﴾ أي ذلكم الله خالقكم ومالككم ومدبّر أموركم لا معبود بحق سواه ﴿خالقُ كل شيء فاعبدوه﴾ أي هو الخالق لجميع الموجودات ومن كان هكذا فهو المستحق للعبادة وحده ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي وهو الحافظ والمدبر لكل شيء ففوّضوا أموركم إليه وتوسلوا إليه بعبادته ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ أي لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به وهو يراها ويحيط بها لشمول علمه تعالى للخفيات ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ أي اللطيف بعباده الخبير بمصالحهم قال ابن كثير : ونفيُ الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة إذ يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء ، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس فلا تدركه الأبصار. ولهذا كانت عائشة تثبت الرؤية في الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية[1] ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ أي قد جاءكم البينات والحجج التي تُبصرون بها الهدى من الضلال وتميزون بها بين الحق والباطل قال الزجاج : المعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر[2] ﴿فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾ قال الزمخشري : المعنى من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر وإيّاها نفع ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي وإيّاها ضرَّ بالعمى[3] ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي لست عليكم بحافظ ولا رقيب وإنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم ﴿وكذلك نصرّف الآيات﴾ أي وكما بينا ما ذُكر نبيّن الآيات ليعتبروا ﴿وليقولوا درست﴾ أي وليقول المشركون درست يا محمد في الكتب وقرأت فيها وجئتَ بهذا القرآن، واللامُ لامُ العاقبة ﴿ولنبيّنه لقوم يعلمون﴾ أي ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ﴿اتَّبع ما أوحي إليك من ربك﴾ أي اتبع يا محمد القرآن الذي أوحاه الله إليك قال القرطبي : أي لا تشغل قلبك وخاطرك بهم بل اشتغل بعبادة الله[4] ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود بحق إلا هو ﴿وأعرضْ عن المشركين﴾ أي لا تحتفل بهم ولا تلتفت إلى آرائهم ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لهداهم فلم يشركوا ولكنه سبحانه يفعل ما يشاء ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ أي وما جعلناك رقيباً على أعمالهم تجازيهم عليها ﴿وما أنتَ عليهم بوكيل﴾ أي ولستَ بموكل على أرزاقهم وأمورهم قال الصاوي : وهذا تأكيد لما قبله أي لستَ حفيظاً مراقباً لهم فتجبرهم على الإيمان وهذا كان قبل الأمر بالقتال[5] ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ أي لا تسبوا آلهة المشركين وأصنامهم ﴿فيسبوا الله عَدْواً بغير علم﴾ أي فيسبوا الله جهلاً واعتداءً لعدم

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٦٠٥ (٢) تفسير ابن الجوزي ٣/ ٩٩. (٣) الكشاف ٢/ ٤٣ (٤) القرطبي ٧/ ٦٠
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٧

﴿اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

معرفتهم بعظمة الله قال ابن عباس : قال المشركون : لتنتهينَّ عن سبك آلهتنا أو لنهجونَّ ربك فنهاهم الله أن يسبّوا أوثانهم[1] ﴿كذلك زينا لكل أمةٍ عملهم﴾ أي كما زينّا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينّا لكل أمةٍ عملهم قال ابن عباس : زينّا لأهل الطاعة الطاعة ولأهل الكفر الكفرَ ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ أي ثم معادهم ومصيرهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ، وهو وعيدٌ بالجزاء والعذاب ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم﴾ أي حلف كفار مكة بأغلظ الأيمان وأشدها ﴿لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمنُنَّ بها﴾ أي لئن جاءتهم معجزة أو أمر خارقٌ مما اقترحوه ليؤمننَّ بها ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي قل لهم يا محمد أمر هذه الآيات عند الله لا عندي هو القادر على الإتيان بها دوني ﴿وما يُشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ أي وما يدريكم أيها المؤمنون لعلها إذا جاءتهم لا يصدقون بها !! ﴿ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ أي ونحوّل قلوبهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا بما أُنزل من القرآن أول مرة قال الصاوي : وهو استئناف مسوقٌ لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره فمن أراد له الهدى حوّل قلبه له ، ومن أراد الله شقاوته حوّل قلبه لها[2] ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي ونتركهم في ضلالهم يتخبطون ويتردّدون متحيرين .

البَـلاغَـة : ١ - ﴿يخرج الحيّ من الميت﴾ بين لفظ الحيّ والميت طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وفي الآية أيضاً من المحسنات ما يسمى ردّ العجز على الصدر في قوله ﴿ومخرج الميت من الحي﴾ .

٢ - ﴿فأنى تؤفكون﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا وجه لصرفكم عن الإيمان بعد قيام البرهان .

٣ - ﴿ فأخرجنا به ﴾ فيه التفاتٌ عن الغيبة والأصل فأخرج به والنكتة هي الاعتناء بشأن المُخْرَج والإشارة إلى أنَّ نِعَمَه عظيمة .

٤ - ﴿والزيتون والرمان﴾ من عطف الخاص على العام لمزيد الشرف لأنهما من أعظم النعم .

٥ - ﴿بصائر من ربكم﴾ مجاز مرسل من باب تسمية المسبب باسم السبب أي حجج وبراهين تبصرون بها الحقائق .

(١) ابن كثير ٦٠٧/١ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٩ .

٦ ـ بين لفظ ﴿أبصر وعمي﴾ طباق وبين لفظ ﴿بصائر وأبصر﴾ جناس الاشتقاق .

تنبيه : قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾ الآية نفت الإحاطة ولم تنف الرؤية فلم يقل تعالى : لا تراه الأبصار فمن ذهب إلى عدم رؤية الله في الآخرة كالمعتزلة فقد جانب الحق وضلّ السبيل بمخالفة ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ المتواترة أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ وأما السنة فما أخرجه البخاري (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته . .) الحديث وكفى بالكتاب والسنة دليلاً وهادياً .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى . . إلى . . وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾ من آية (١١١) إلى نهاية آية (١٢٧) .

المناسبة : لما ذكر تعالى دلائل التوحيد والنبوّة والبعث ، واقتراح المشركين بعض الآيات على رسول الله ﷺ ، ذكر هنا أن رؤية المعجزات لن تفيد من عميت بصيرته ، وأنه لو أتاهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة ، وإحياء الموتى حتى يكلموهم ، وحشر السباع والدواب والطيور وشهادتهم بصدق الرسول ما آمنوا بمحمد والقرآن لتأصلهم في الضلال .

اللغة : ﴿قُبلاً﴾ مقابلة ومواجهة ومنه قولهم أتيتُك قُبُلاً لا دُبُراً أي من قِبَل وجهك ﴿وحشرنا﴾ الحشر : الجمع مع سوقٍ وكل جمعٍ حشرٌ ومنه ﴿فحشر فنادى﴾ . ﴿زخرف﴾ قال الزجاج : الزخرف الزينة وقال أبو عبيدة : كلٌّ ماحسنته وزينته وهو باطل فهو زخرف ﴿ولتصغى﴾ صغى إلى الشيء مال إليه ومثله أصغى وفي الحديث (فأصغى إليها الإناء) وأصله الميل ﴿يقترفون﴾ اقترف:اكتسب وأكثر ما يكون في الشر يقال : قرف الذنبَ واقترفه أي اكتسبه ﴿يخرصون﴾ يكذبون قال الأزهري : أصله الظن فيما لا يستيقن[١] ﴿صغار﴾ ذلة وهوان ﴿يشرح﴾ يوسّع والشرح : البسط والتوسعة ﴿حَرَجاً﴾ الحَرَج : شدة الضيق قال ابن قتيبة : الحَرِج الذي ضاق فلم يجد منفذاً[٢] .

سبب النزول : عن ابن عباس أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث ـ وحمزة لم يؤمن بعد ـ فأُخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوسٌ فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس فقال أبو جهل : أما ترى ما جاء به سفّه عقولنا ، وسب آلهتنا ، وخالف آباءنا قال حمزة : ومن أسفهُ منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فأنزل الله ﴿أوَمَنْ كان ميتاً فأحييناه . . ﴾[٣] الآية .

---

(١) تهذيب اللغة مادة خرص . (٢) غريب القرآن ص ١٦٠ . (٣) أسباب النزول ص ١٢٨ .

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ﴾

التفسير : ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾ هذا بيانٌ لكذب المشركين في أيمانهم الفاجرة حين أقسموا ﴿لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمننَّ بها﴾ والمعنى : ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه من آيةٍ واحدة من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكة وأحيينا لهم الموتى فكلموهم وأخبروهم بصدق محمد ﷺ كما اقترحوا ﴿وحشرنا عليهم كل شيءٍ قُبُلا﴾ أي وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ أي لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكل آية لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله ، والغرضُ التيئيسُ من إيمانهم ﴿ولكنَّ أكثرهم يجهلون﴾ أي ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين يجهلون ذلك قال الطبري : أي يجهلون أن الأمر بمشيئة الله ، يحسبون أن الإيمان إليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا ، ومتى شاءوا كفروا ، وليس الأمر كذلك ، ذلك بيدي لا يؤمن منهم إلا من هديتُه له فوفقته ، ولا يكفر إلا من خذلتُه فأضللتُه[1] ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدواً شياطينَ الإنس والجنّ﴾ أي كما جعلنا هؤلاء المشركين أعداءك يعادونك ويخالفونك كذلك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء من شياطين الإنس والجن، فاصبر على الأذى كما صبروا قال ابن الجوزي : أي كما ابتليناك بالأعداء ابتلينا من قبلك من الأنبياء ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى[2] ﴿يوحي بعضهم إلى بعض﴾ أي يوسوس بعضهم إلى بعض بالضلال والشر ﴿زخرف القول غروراً﴾ أي يوسوسون بالكلام المزيّن والأباطيل المموّهة ليغروا الناس ويخدعوهم قال مقاتل : وكَلَ إبليسُ بالإنس شياطينَ يُضلونهم فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن قال أحدهما لصاحبه : إني أضللتُ صاحبي بكذا وكذا فأضللْ أنتَ صاحبك بكذا وكذا ، فذلك وحيُ بعضهم إلى بعض[3] ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم ولكنَّ حكمة الله اقتضتْ هذا الابتلاء قال ابن كثير : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدوٌ من هؤلاء[4] ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من المكائد فإن الله كافيك وناصرُكَ عليهم ﴿ولتصغى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي ولتميل إلى هذا القول المزخرف قلوبُ الكفرة الذين لا يصدّقون بالآخرة ﴿وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ أي وليرضوا بهذا الباطل وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ أي قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم ؟ قال أبو حيان : قال

(١) الطبري ١٢/ ٤٧ . (٢) زاد المسير ٣/ ١٠٨ . (٣) تفسير ابن الجوزي ٣/ ١٠٩ . (٤) أبو السعود ٢/ ١٣١

وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا
ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ

مشركو قريش لرسول الله ﷺ : اجعلْ بيننا وبينك حكماً إن شئتَ من أحبار اليهود أو النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت[1] ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصَّلاً﴾ أي أنزل إليكم القرآن بأوضح بيان ، مفصَّلاً فيه الحق والباطل موضّحاً الهدى من الضلال ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّلٌ من ربك بالحق﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم أن القرآن حقٌ لتصديقه ما عندهم ﴿فلا تكوننَّ من الممترين﴾ أي فلا تكوننَّ من الشاكين قال أبو السعود : وهذا من باب التهييج والإلهاب وقيل : الخطاب للرسول والمراد به الأمة[2] ﴿وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي تمّ كلام الله المنزّل صدقاً فيما أخبر ، وعدلاً فيما قضى وقدَّر ﴿لا مبدّل لكلماته﴾ أي لا مغيّر لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله﴾ أي إن تطع هؤلاء الكفار وهم أكثر أهل الأرض يضلّوك عن سبيل الهدى قال الطبري : وإنما قال ﴿أكثر من في الأرض﴾ لأنهم كانوا حينئذٍ كفاراً ضُلّالاً والمعنى : لا تطعهم فيما دعوك إليه فإنك إن أطعتهم ضللتَ ضلالهم وكنت مثلهم لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه[3] ﴿إن يتّبعون إلا الظنَّ وإن هم إلا يخرصون﴾ أي ما يتبعون في أمر الدين إلا الظنون والأوهام يقلّدون آباءهم ظناً منهم أنهم كانوا على الحق وما هم إلا قومٌ يكذبون ﴿إنَّ ربك هو أعلم من يضلُّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي إن ربك يا محمد أعلم بالفريقين بمن ضلَّ عن سبيل الرشاد وبمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد قال في البحر : وهذه الجملة خبريةٌ تتضمن الوعيد والوعد لأن كونه تعالى عالماً بالضال والمهتدي كناية عن مجازاتهما[4] ﴿فكلوا مما ذُكر اسمُ الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ أي كلوا مما ذبحتم وذكرتم اسم الله عليه إن كنتم حقاً مؤمنين قال ابن عباس : قال المشركون للمؤمنين إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله - يريدون الميتة - أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فنزلت الآية[5] ﴿وما لكم ألاَّ تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه﴾ أي وما المانع لكم من أكل ما ذبحتموه بأيديكم بعد أن ذكرتم اسم ربكم عليه عند ذبحه ؟ ﴿وقد فصّل لكم ما حرَّم عليكم إلا ما اضطررتم إليه﴾ أي وقد

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٠٦ . (٢) أبو السعود ٤/ ٢٧٤ . (٣) الطبري ١٢/ ٦٤ . (٤) البحر المحيط ٤/ ٢١٠ . (٥) زاد المسير ٣/ ١١٢ .

عَلِيمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ

بيَّن لكم ربكم الحلال والحرام ووضّح لكم ما يحرم عليكم من الميتة والدم الخ في آية المحرمات إلا في حالة الاضطرار فقد أحلّ لكم ما حرّم أيضاً فما لكم تستمعون إلى الشبهات التي يثيرها أعداؤكم الكفار ؟ ﴿وإن كثيراً ليُضلون بأهوائهم بغير علم﴾ أي وإن كثيراً من الكفار المجادلين ليُضلون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بغير شرعٍ من الله بل بمجرد الأهواء والشهوات ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ أي المجاوزين الحدَّ في الاعتداء فيحلّلون ويحرمون بدون دليل شرعي من كتاب أو سنّة ، وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لمن اعتدى حدود الله ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ أي اتركوا المعاصي ظاهرها وباطنها وسرَّها وعلانيتها قال مجاهد : هي المعصية في السر والعلانية وقال السدي : ظاهره الزنى مع البغايا وباطنه الزنى مع الصدائق والأخدان[١] ﴿إنَّ الذين يكسبون الإثم سيُجزون بما كانوا يقترفون﴾ أي يكسبون الإثم والمعاصي ويأتون ما حرّم الله سيلقون في الآخرة جزاء ما كانوا يكتسبون ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ أي لا تأكلوا أيها المؤمنون ممَّا ذُبح لغير الله أو ذكر اسم غير الله عليه كالذي يذبح للأوثان ﴿وإنه لفسقٌ﴾ أي وإن الأكل منه لمعصيةٌ وخروجٌ عن طاعة الله ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ أي وإن الشياطين ليوسوسون إلى المشركين أوليائهم في الضلال لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم : أتأكلون ممَّا قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله ؟ يعني الميتة ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ أي وإن أطعتم هؤلاء المشركين في استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم إنكم إذاً مثلهم قال الزمخشري : لأن من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به ، ومن حق ذي البصيرة في دينه ألا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان للتشديد العظيم[٢] ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ قال أبو حيان : لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين مثَّل تعالى بأن شبّه المؤمن بالحيِّ الذي له نور يتصرف به كيفما سلك ، والكافر بالمتخبط في الظلمات المستقر فيها ليظهر الفرق بين الفريقين[٣] والمعنى : أو من كان بمنزلة الميت أعمى البصيرة كافراً ضالاً ، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وأنقذه من الضلالة بالقرآن ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ أي وجعلنا مع تلك الهداية النور العظيم الوضاء الذي يتأمل به الأشياء فيميز به بين الحق والباطل ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها﴾ أي كمن هو يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة لا يعرف المَنْفذ ولا المخْلص ؟ قال البيضاوي : وهو مَثَلٌ لمن بقي في الضلالة لا يفارقها

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٦١٢ . (٢) الكشاف ٢/ ٤٩ . (٣) البحر المحيط ٤/ ٢١٤ .

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى

بحال[١] ﴿كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾ أي وكما بقي هذا في الظلمات يتخبّط فيها كذلك حسناً للكافرين وزينا لهم ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل بلدةٍ مجرميها من الأكابر والعظماء ليفسدوا فيها قال ابن الجوزي : وإنما جعل الأكابر فُسَّاق كل قرية لأنهم أقربُ إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة[٢] ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يدرون أن وبال هذا المكر يحيق بهم ﴿وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نُؤْمن حتى نُؤتى مثلَ ما أُوتي رسلُ الله﴾ أي وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجةٌ قاطعة وبرهانٌ ساطع على صدق محمد ﷺ قالوا لن نصدّق برسالته حتى نُعطى من المعجزات مثل ما أُعطي رسُل الله ، قال في البحر : وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ولو كانوا موقنين غير معاندين لاتبعوا رسل الله تعالى ، وروي أن أبا جهل قال : زاحمنا بني عبد منافٍ في الشرف حتى إذا صرنا كفرَسَيْ رهان قالوا : منّا نبيٌّ يُوحى إليه ! والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه فنزلت الآية[٣] ﴿الله أعلم حيثُ يجعل رسالته﴾ أي الله أعلم من هو أهلٌ للرسالة فيضعها فيه وقد وضعها فيمن اختاره لها وهو محمد ﷺ دون أكابر مكة كأبي جهل والوليد بْن المغيرة ﴿سيصيب الذين أجرموا صغارٌ عند الله وعذاب شديدٌ بما كانوا يمكرون﴾ أي سيصيب هؤلاء المجرمين الذل والهوان ، والعذاب الشديد يوم القيامة بسبب استكبارهم ومكرهم المستمر قال في البحر : وقدَّم الصغار على العذاب لأنهم تمردوا عن اتباع الرسول وتكبّروا طلباً للعزّ والكرامة فقوبلوا بالهوان والذل أولاً ثم بالعقاب الشديد ثانياً[٤] ﴿فمن يرد الله أنْ يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ أي من شاء الله هدايته قذف في قلبه نوراً فينفسح له وينشرح وذاك علامة الهداية للإسلام قال ابن عباس : معناه يوسّع قلبه للتوحيد والإيمان ، وحين سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال : إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله[٥] ﴿ومن يرد أن يضلَّه﴾ أي ومن يرد شقاوته وإضلاله ﴿يجعلْ صدره ضيّقاً حرجاً﴾ أي يجعل صدره ضيّقاً شديد الضيق لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان

(١) البيضاوي ص ١٨١ . (٢) زاد المسير ٣/ ١١٧ . (٣) البحر ٤/ ٢١٦ . (٤) البحر ٤/ ٢١٧ . (٥) الطبري ١٢/ ١٠٠ .

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝ * لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾

قال عطاء : ليس للخير فيه منفذ[١] ﴿كأنما يصَّعَّد في السماء﴾ أي كأنما يحاول الصعود إلى السماء ويزاول أمراً غير ممكن قال ابن جرير : وهذا مثلٌ ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه ، مثلُ امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه[٢] ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ أي مثل جعل صدر الكافر شديد الضيق كذلك يلقي الله العذاب والخذلان على الذين لا يؤمنون بآياته قال مجاهد : الرجسُ كل ما لا خير فيه وقال الزجاج : الرجس اللعنةُ في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾ أي وهذا الدين الذي أنت عليه يا محمد هو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه فاستمسك به ﴿قد فصَّلنا الآيات لقوم يذَّكرون﴾ أي بينا ووضحنا الآيات والبراهين لقوم يتدبرون بعقولهم ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ أي لهؤلاء الذين يؤمنون ويعتبرون وينتفعون بالآيات دار السلام أي السلامة من المكاره وهي الجنة في نُزل الله وضيافته ﴿وهو وليُّهم بما كانوا يعملون﴾ أي هو تعالى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم جزاءً لأعمالهم الصالحة قال ابن كثير : وإنما وصف تعالى الجنة هنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام[٣] .

البَلاغَة : ١ - ﴿ولو شاء ربك﴾ التعرض لوصف الربوبية والإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿ربك﴾ لتشريف مقامه وللمبالغة في اللطف في التسلية[٤]

٢ - ﴿فلا تكوننَّ من الممترين﴾ الخطاب للرسول ﷺ على طريق التهييج والإلهاب .

٣ - ﴿وتمَّت كلمة ربك﴾ أي تمَّ كلامه ووحيه أطلق الجزء وأراد الكل فهو مجاز مرسل .

٤ - ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ بين لفظ ﴿ظاهر﴾ و ﴿باطن﴾ طباقٌ .

٥ - ﴿أوَمَنْ كان ميتاً فأحييناه﴾ الموتُ والحياة ، والنور والظلمة كلها من باب الاستعارة فقد استعار الموت للكفر والحياة للإيمان وكذلك النور والظلمات للهدى والضلال[٥] .

٦ - ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ الشرح كناية عن قبول النفس للحق والهدى الذي جاء به الرسول ﷺ وبين لفظ الشرح والضيق طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

(١) ابن كثير ١/ ٦١٧ . (٢) الطبري ١٢/ ١٠٩ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٦١٨ .
(٤) أفاده أبو السعود . (٥) انظر البحر المحيط ٤/ ٢١٤ .

فائدة : الحكم أبلغ من الحاكم وأدلُّ على الرسوخ لأنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرّر منه الحكم بخلاف الحاكم[١] .

تنبيه : قال الرازي : دلّت هذه الآية ﴿وإن كثيراً ليُضلُّون بأهوائهم بغير علم﴾ على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قولٌ بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلّت على أن ذلك حرام[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس . . إلى . . قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ .

من آية (١٢٨) إلى نهاية آية (١٤٠) .

المناسبة : لما ذكر سبحانه أن البشر فريقان : مهتد وضال ، وذكر أن منهم من شرح الله صدره وأنار قلبه فآمن واهتدى ، ومنهم من اتبع الهوى وسار بقيادة الشيطان فضلّ وغوى ، ذكر هنا أنه سيحشر الخلائق جميعاً يوم القيامة للحساب ، لينال كلٌّ جزاءه العادل على ما قدّم في هذه الحياة .

اللغة : ﴿مثواكم﴾ مأواكم يقال ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿يقصّون﴾ يحكون يقال قصَّ الخبر يقصُّه قصاً أي حكاه ﴿ذرأ﴾ خلق ﴿الحرث﴾ الزرع ﴿ليردُوهم﴾ الإرداء : الإهلاك يقال أرداهُ يرديه أي أهلكه ﴿حِجْر﴾ الحِجر : الحرام وأصله المنع يقال حجره أي منعه والحِجْر : العقل سمي به لأنه يمنع عن القبائح قال تعالى ﴿هل في ذلك قسَمٌ لذي حِجْر﴾ ﴿سفهاً﴾ حماقة وجهالة والسَّفه : خفة العقل .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

التفسير : ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي اذكر يوم يجمع الله الثقلَين : الإنس والجن جميعاً للحساب قائلاً ﴿يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس﴾ أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم قال ابن عباس : أضللتم منهم كثيراً ، وهذا بطريق التوبيخ والتقريع ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي وقال الذين أطاعوهم من الإنس ربنا انتفع بعضنا ببعض قال البيضاوي : انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ، وانتفع الجنُّ بالإنس بأن أطاعوهم وحصّلوا مرادهم[٣] ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجّلتَ لنا﴾ أي وصلنا إلى الموت والقبر ووافينا الحساب ،

(١) محاسن التأويل ٦/ ٢٤٧٤ . (٢) التفسير الكبير ١٣/ ١٦٧ . (٣) البيضاوي ص ١٨١ .

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾

وهذا منهم اعتذارٌ واعترافٌ بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتحسر على حالهم ﴿قال النار مثواكم﴾ أي قال تعالى رداً عليهم النارُ موضع مقامكم وهي منزلكم ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ أي ماكثين في النار في حال خلودٍ دائم إلا الزمان الذى شاء الله أن لا يخلدوا فيها قال الطبري : هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار[1] وقال الزمخشري : يخُلدون في عذاب النار الأبد كلَّه إلا ما شاء الله أي إلا الأوقات التي يُنقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير فقد رُوي أنهم يدخلون وادياً من الزمهرير فيتعاوَوْن ويطلبون الرد إلى الجحيم[2] ﴿إنَّ ربك حكيم عليم﴾ أي حكيم في أفعاله عليم بأعمال عباده ﴿وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ أي كما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض نسلّط بعض الظالمين على بعض بسبب كسبهم للمعاصي والذنوب قال القرطبي : وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالماً آخر قال ابن عباس : إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم ، وإذا سخط الله على قوم ولّى أمرهم شرارهم[3] وعن مالك بن دينار قال : قرأتُ في بعض كتب الحكمة إن الله تعالى يقول : « إني أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك ولكن توبوا إليَّ أعطفْهم عليكم »[4] ﴿يا معشر الجن والإنس ألمْ يأتكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتي﴾ هذا النداء أيضاً يوم القيامة والاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم تأتكم الرسل يتْلون عليكم آيات ربكم ؟ ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي يخوفونكم عذاب هذا اليوم الشديد ؟ ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ أي لم يجدوا إلا الإعتراف فقالوا : بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتتنا وأنذرتنا لقاء يومنا هذا قال ابن عطية : وهذا إقرارٌ منهم بالكفر واعتراف على أنفسهم بالتقصير كقولهم ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذبنا﴾ ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم الدنيا بنعيمها وبَهْرجها الكاذب ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي اعترفوا بكفرهم قال البيضاوي : وهذا ذمٌ لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم ، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيا ولذاتها الفانية ، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلّد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم[5] ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾ أي إنما فعلنا هذا بهم من إرسال الرسل إليهم لإنذارهم سوء العاقبة لأن ربك عادل لم يكن ليهلك قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً قال الطبري : أي إنما

(١) الطبري ١٢/ ١١٨ . (٢) الكشاف ٢/ ٥١ . (٣) القرطبي ٧/ ٨٥ . (٤) الفخر الرازي ١٣/ ١٩٤ . (٥) البيضاوي ص ١٨٢ .

مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ

أرسلنا الرسل يا محمد يقصون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم من أجل أن ربك لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر[1] ﴿ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا﴾ أي ولكل عاملٍ بطاعة الله أو معصيته ، منازل ومراتب من عمله يلقاها في آخرته إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر ، قال ابن الجوزي : وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج[2] ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ أي ليس الله بلاهٍ أو ساهٍ عن أعمال عباده، وفي ذلك تهديد ووعيد ﴿وربُّك الغنيُّ﴾ أي هو جل وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم ، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿ذو الرحمة﴾ أي ذو التفضل التام قال ابن عباس : ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته ، وقال غيره : بجميع الخلق ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين قال أبو السعود : وفيه تنبيهٌ على أنَّ ما سلف ذكره من الإِرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد[3] ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أي لو شاء لأهلككم أيها العصاة بعذاب الاستئصال ﴿ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء﴾ أي وأتى بخلقٍ آخر أمثلَ منكم وأطوع ﴿كما أنشأكم من ذرية قومٍ آخرين﴾ أي كما خلقكم وابتدأكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم قال أبو حيان : وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإِهلاك[4] ﴿إنَّ ما تُوعدون لآت﴾ أي ما توعدونه من مجيء الساعة والحشر لواقعٌ لا محالة ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي لا تخرجون عن قدرتنا وعقابنا وإن ركبتم في الهرب متن كل صعبٍ وذلول ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي قل لهم يا محمد يا قوم اثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي واعملوا ما أنتم عاملون ، والأمر هنا للتهديد كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ﴿إني عاملٌ﴾ أي عاملٌ ما أمرني به ربي من الثبات على دينه ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ أي فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة أنحن أم أنتم ؟ ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا ينجح ولا يفوز بمطلوبه من كان ظالماً قال الزمخشري : في الآية طريقٌ من الإِنذار لطيف المسلك ، فيه إنصاف في المقال وأدبٌ حسن ، مع تضمن شدة الوعيد ، والوثوق بأن المُنْذِر محِقٌ ، والمُنْذَر مبطل[5] ﴿وجعلوا للّه مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ أي جعل مشركو قريش للّه مما خلق من الزرع والأنعام نصيباً ينفقونه على الفقراء ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها قال ابن كثير : هذا ذمٌ وتوبيخٌ من الله للمشركين الذين

---

(١) الطبري ١٢/ ١٢٤ . (٢) ابن الجوزي ٣/ ١٢٦ . (٣) أبو السعود ٢/ ١٣٨ . (٤) البحر ٤/ ٢٢٥ (٥) الكشاف ٢/ ٥٣ .

فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ

ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله شركاء وهو خالق كل شيء سبحانه ﴿وجعلوا لله مما ذرأ﴾ أي خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام جزءاً وقسماً[١] ﴿فقالوا هـذا للّـه بزعمهـم﴾ أي قالـوا : هذا نصيب اللـه بزعمهم أي بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع قال في التسهيل : وأكثرُ ما يقال الزعم في الكذب[٢] ﴿وهـذا لشركائنـا﴾ أي وهذا النصيب لآلهتنا وأصنامنا قال ابن عباس : إنَّ أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا للّه منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرثٍ أو ثمرةٍ أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سُمي للّه ردّوه إلى ما جعلوه للوثن وقالوا إن الله غنيٌّ والأصنام أحوج[٣] ولهذا قال : ﴿فمـا كـان لشركائهم فلا يصـل إلى اللـه﴾ أي ما كان للأصنام فلا يصل إلى الله منه شيء ﴿ومـا كان للّه فهو يصل إلى شركائهـم﴾ وما كان من نصيب الله فهو يصل إلى أصنامهم قال مجاهد : كانوا يسمُّون جزءاً من الحرث لله وجزءاً لشركائهم وأوثانهم فما ذهبت به الريح من نصيب الله إلى أوثانهم تركوه وما ذهب من نصيب أوثانهم إلى نصيب الله ردوه ، وكانوا إذا أصابتهم سَنَةٌ « قحط » أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم ﴿ساء ما يحكمـون﴾ أي بئس هذا الحـكم الجائـر حكمهم ﴿وكذلك زيَّـن لكثيـرٍ من المشركيـن قتل أولادهـم شركاؤهـم﴾ أي مثل ذلك التزيين في قسمة القربان بين الله وبين آلهتهم زيَّن شياطينُهم لهم قتل أولادهم بالوأد أو بنحرهم لآلهتهم قال الزمخشري : كان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنَّ أحدهم كما حلف عبد المطلب[٤] ﴿ليرْدُوهـم﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء ﴿وليلبسـوا عليهـم دينهـم﴾ أي وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام ﴿ولـو شـاء اللّـهُ ما فعلـوه﴾ أي لو شاء اللـه ما فعلـوا ذلك القبيح ﴿فـذرهـم ومـا يفتـرون﴾ أي دعْهم وما يختلقونه من الإفك على الله ، وهو تهديد ووعيد ﴿وقالوا هذه أنعـامٌ وحـرثٌ حِجْـرٌ﴾ هذه حكاية عن بعض قبائحهم وجرائمهم أيضاً أي قال المشركون هذه أنعام وزروع أفردناها لآلهتنا حرام ممنوعة على غيرهم ﴿لا يَطْعمها إلا مـن نشـاء﴾ أي من خَدمة الأوثان وغيرهم ﴿بزعمهـم﴾ أي بزعمهم الباطل من غير حجة ولا برهـان ﴿وأنعـامٌ حُرِّمـتْ ظهـورهـا﴾ أى لا تركب كالبحائر والسوائب والحوامي ﴿وأنعـامٌ لا يذكرون اسـم اللـه عليهـا﴾ أى عند الذبح وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿افتـراءً عليـه﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿سيجزيهـم بما كانوا يفتـرون﴾ أى سيجزيهم

(١) مختصر ابن كثير ١/٦٢٢ . (٢) التسهيل ٢/٢٢ . (٣) مختصر ابن كثير ١/٦٢٢ . (٤) الكشاف ٢/٥٤

عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

على ذلك الافتراء ، وهو تهديد شديد ووعيد ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا﴾ هذا إشارة إلى نوع آخر من أنواع قبائحهم أي قالوا ما في بطون هذه البحائر والسوائب حلال لذكورنا خاصة ﴿ومحرَّمٌ على أزواجنا﴾ أي لا تأكل منه الإناث ﴿وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء﴾ أي وإن كان هذا المولود منها ميتةً اشترك فيه الذكور والإناث ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أي سيجزيهم جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم ﴿إنه حكيم عليم﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم﴾ أي والله لقد خسر هؤلاء السفهاء الذين قتلوا أولادهم قال الزمخشري : نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر[١] ﴿سفهاً بغير علم﴾ أي جهالة وسفاهة لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم ﴿وحرّموا ما رزقهم الله﴾ أي حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة وشبهها ﴿افتراءً على الله﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ أي لقد ضلوا عن الطريق المستقيم بصنيعهم القبيح وما كانوا من الأصل مهتدين لسوء سيرتهم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين﴾[٢] .

البـلاغـة : ١ - ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أي أفرطتم في إضلال وإغواء الإنس ، ففيه إيجاز بالحذف ومثله ﴿استمتع بعضنا ببعض﴾ أي استمتع بعض الإنس ببعض الجن ، وبعضُ الجن ببعض الإنس .

٢ - ﴿النار مثواكم﴾ تعريف الطرفين لإفادة الحصر .

٣ - ﴿ألم يأتكم رسلٌ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع .

٤ - ﴿ولكل﴾ أي لكل من العاملين فالتنوين عوضٌ عن محذوف .

٥ - ﴿إنَّ ما توعدون لآتٍ﴾ صيغة الاستقبال ﴿توعدون﴾ للدلالة على الاستمرار التجددي ، ودخولُ إنَّ واللام على الجملة للتأكيد لأن المخاطبين منكرون للبعث فلذا أُكد الخبر بمؤكدين .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٦٢٤ .

٦ - ﴿ما رزقهم الله افتراءً على الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وضلالهم أفاده أبو السعود[١] .

الفوائد : الأولى : قال السيوطي في الإكليل : قوله تعالى ﴿وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً﴾ الآية في معنى حديث (كما تكونون يولّى عليكم)[٢] وقال الفضيل بن عياض : إذا رأيتَ ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجباً .

الثانية : الجمهور على أن الرسل من الإنس ولم يكن من الجن رسول وقوله تعالى ﴿ألم يأتكم رسلٌ منكم﴾ هو من باب التغليب كقوله ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرجان من البحر المالح دون العذب .

الثالثة : ذكر القرطبي في تفسيره أن رجلاً من أصحاب النبيﷺ كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول اللهﷺ فقال له الرسول : مالك تكون محزوناً ؟ فقال يا رسول الله :إني أذنبتُ في الجاهلية ذنباًفأخاف ألاّ يغفره الله لي وإن أسلمت ! فقال له : أخبرني عن ذنبك ؟ فقال يا رسول الله : إني كنتُ من الذين يقتلون بناتهم فوُلدت لي بنتٌ فتشفّعتْ إليَّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء فخطبوها فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج فقلت للمرأة : إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابعثيها معي فَسُرَّت بذلك وزينتها بالحليّ والثياب ، وأخذت عليَّ المواثيق بألا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرتُ في البئر ففطنت الجارية بأني أريد أن ألقيها في البئر فالتزمتني وجعلت تبكي فرحمتها ، ثم نظرتُ في البئر فدخلت عليَّ الحمية حتى غلبني الشيطان فألقيتها في البئر منكوسة ومكثتُ هناك حتى انقطع صوتها فرجعتُ فبكى رسول اللهﷺ وأصحابه وقال : لو أُمرتُ أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتُك[٣] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات . . إلى . . وهم بربهم يعدلون﴾ من آية (١٤١) إلى نهاية آية (١٥٠)

المناسبة : لمّا أخبر تعالى عن المشركين أنهم حرّموا أشياء مما رزقهم الله وحكى طرفاً من قبائحهم وجرائمهم ،ذكر تعالى هنا ما امتنَّ به عليهم من الرزق الذي تصرفوا فيه بغير إذنه تعالى افتراءً منهم عليه واختلاقاً ، ثم أعقبه باحتجاجهم على الشرك وعدم الإيمان بالقضاء والقدر ، وهذا أيضاً من جملة الكذب والبهتان والافتراء على الله .

اللغة : ﴿معروشات﴾ مرفوعات على ما يحملها من العيدان ﴿حصاده﴾ الحصاد : جمع الثمر كالجُذاذ ﴿حمولة﴾ الحمولة :الإبل التي تحمل الأثقال على ظهورها ﴿فرشاً﴾ الفرش :الصغار

(١) أبو السعود ٢/ ١٤١ . (٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٢٥٠٥ . (٣) تفسير القرطبي ٧/ ٩٧ .

التي لا تصلح للحمل كالفُصلان والعجاجيل قال الزجاج : الفرشُ صغار الإبل قال الشاعر :

أورثني حمولةً وفرْشاً أمُشُّها في كلِّ يومٍ مَشّاً

﴿الحوايا﴾ قال الواحدي : هي المباعر والمصارين واحدتها حاوية وحويّة وقيل : الحوايا الأمعاء التي عليها الشحوم سميت حوايا لأن البطن يحويها ﴿هلُمَّ﴾ هاتوا ﴿يعدلون﴾ يشركون به .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ

التفسير : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ أي هو الذي أنعم عليكم بأنواع النعم لتعبدوه وحده ، فخلق لكم بساتين من الكروم منها مرفوعات على عيدان ، ومنها متروكات على وجه الأرض لم تعرش ﴿والنخل والزرع مختلفاً أكلُهُ﴾ أي وأنشأ لكم شجر النخيل المثمر بما هو فاكهة وقوت ، وأنواع الزرع المحصّل لأنواع القوت مختلفاً ثمره وحبُّه في اللون والطعم والحجم والرائحة ﴿والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾ أي متشابهاً في اللون والشكل وغير متشابه في الطعم ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ أي كلوا أيها الناس من ثمر كل واحد مما ذكر إذا أدرك من رطبه وعنبه ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أي أعطوا الفقير والمسكين من ثمره يوم الحصاد ما تجود به نفوسكم وقال ابن عباس : يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيْلُه[1] ﴿ولا تُسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ أي ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن قال الطبري : المختار قول عطاء أنه نهيٌ عن الإسراف في كل شيء[2] ﴿ومن الأنعام حمولةً وفرشاً﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقالَ وما يُفرش للذبح « أي يضجع » قال ابن أسلم : الحمُولةُ ما تركبون ، والفَرْشُ ما تأكلون وتحلبون ﴿كلوا ممّا رزقكم الله﴾ أي كلوا من الثمار والزروع والأنعام فقد جعلها الله لكم رزقاً ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي طريقه وأوامره في التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية ﴿إنه لكم عدوٌ مبين﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فاحذروا كيده ﴿ثمانية أزواج من الضأنِ اثنين ومن المعز اثنين﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أنواعٍ أحلّ لكم أكلها ، من الضأن ذكراً وأنثى ، ومن المعز ذكراً وأنثى قال القرطبي : يعني ثمانية أفرادٍ ، وكلُّ فردٍ عند العرب يحتاج إلى آخر يُسمَّى زوجاً فيقال للذكر : زوجٌ وللأنثى زوجٌ[3] ويراد بالزوجين من

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٦٢٤ . (٢) الطبري ١٢/ ١٧٦ . (٣) القرطبي ٧/ ١١٣ .

أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ

الضأن : الكبشُ والنعجة ، ومن المعز : التيسُ والعنز ﴿قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين﴾ ؟ هذا إنكارٌ لما كانوا يفعلونه من تحريم ما أحلَّ الله أي قل لهم يا محمد على وجه التوبيخ والزجر : آلذكرين من الضأن والمعز حرّم الله عليكم أيها المشركون أم الانثيين منهما ؟ ﴿أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أي أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ؟ ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ تعجيزٌ وتوبيخ أي أخبروني عن الله بأمرٍ معلوم لا بافتراءٍ ولا بتخرص إن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إلى الله ﴿ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين﴾ أي وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ومن البقر اثنين هما الجاموس والبقرة ﴿قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ ؟ كرره هنا مبالغة في التقريع والتوبيخ قال أبو السعود : والمقصود إنكار أن الله سبحانه حرّم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم في ذلك فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارةً ، وإناثها تارةً ، وأولادها تارة أخرى[1] ﴿أم كنتم شهداء إذْ وصّاكم الله بهذا﴾ زيادة في التوبيخ أي هل كنتم حاضرين حين وصاكم الله بهذا التحريم ؟ وهذا من باب التهكم ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليُضلَّ الناسَ بغير علم﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فنسب إليه تحريم ما لم يحرّم بغير دليلٍ ولا برهان ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ عمومٌ في كل ظالم ، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يبيّن لهم ما حرمه الله عليهم فقال ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرماً على طاعم يَطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة لا أجد فيما أوحاه الله إليَّ من القرآن شيئاً محرماً على أيِّ إنسان إلا أن يكون ذلك الطعام ميتةً أو دماً سائلاً مصبوباً أو يكون لحم خنزير فإنه قذرٌ ونجس لتعوده أكل النجاسات ﴿أو فسقاً أُهلَّ لغير الله به﴾ أي أو يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله كالمذبوح على النُّصب ، سُمّي فسقاً مبالغةً كأنه نفس الفسق لأنه ذبح على اسم الأصنام ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ أي من أصابته الضرورة واضطرته إلى أكل شيء من المحرمات فلا إثم عليه إن كان غير باغٍ أي غير قاصد التلذذ بأكلها بدون ضرورة ولا عادٍ أي مجاوزٍ قدر الضرورة التي تدفع عنه الهلاك فالله غفور

(١) أبو السعود ٢/ ١٤٢ .

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ

رحيم بالعباد ، ثم بيّن تعالى أن ما حرّمه على اليهود إنما كان بسبب بغيهم وعصيانهم فقال ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ أي وعلى اليهود خاصةً حرمنا عليهم كل ذي ظُفر قال ابن عباس : هي ذوات الظِّلْفِ كالإبل والنعام وما ليس بذي أصابع منفرجة كالبط والأوز[١] ﴿ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما﴾ أي وحرّمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ أي إلا الشحم الذي علق بالظهر منها ﴿أو الحوايا﴾ أي الأمعاء والمصارين ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ كشحم الألية والمعنى أن الشحم الذي تعلّق بالظهور أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم كشحم الألية جائز لهم ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون﴾ أي ذلك التحريم بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق من قتل الأنبياء وأكل الربا واستحلال أموال الناس بالباطل وإنّا لصادقون فيما قصصنا عليك يا محمد ، وفي ذلك تعريضٌ بكذب من حرّم ما لم يحرّم الله والتعريض بكذب اليهود ﴿فإن كذبوك فقلْ ربكم ذو رحمةٍ واسعةٍ﴾ أي فإن كذبك يا محمد هؤلاء اليهود فيما جئت به من بيان التحريم فقل متعجباً من حالهم ربكم ذو رحمةٍ واسعة حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة إجرامكم قال في البحر : وهذا كما تقول عند رؤية معصيةٍ عظيمة : ما أحلم الله تعالى! وأنت تريد ما أحلمه لإمهاله العاصي[٢] ، ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بالوعيد الشديد فقال ﴿ولا يُردُّ بأسُه عن القوم المجرمين﴾ أي لا تغتروا بسعة رحمته فإنه لا يُردُّ عذابه وسطوتُه عمن اكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات فهو مع رحمته ذو بأس شديد ، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب حتى لا يقنط المذنب من الرحمة ولا يغتر العاصي بحلم الله . ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء﴾ أي سيقول مشركو العرب لو أراد الله ما كفرنا ولا أشركنا لا نحن ولا آباؤ نا يريدون أن شركهم وتحريمهم لما حرّموا كان بمشيئة الله ولو شاء ألا يفعلوا ذلك ما فعلوه ، فاحتجوا على ذلك بإرادة الله كما يقول الواقع في معصية إذا طلب منه الإقلاع عنها : هذا قدرُ الله لا مهربَ ولا مفرَّ منه ، ولا حجة في هذا لأنهم مكلفون مأمورون بفعل الخير وترك القبيح ولكنها نزعةٌ جبرية يحتج بها السفهاء عندما تدمغهم الحجة قال تعالى في الرد عليهم ﴿كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ أي كذلك كذّب من سبقهم من الأمم حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قل هل عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا﴾ استفهام إنكاري يقصد به التهكم أي قل لهم هل عندكم حجة أو برهان

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٤٣ . (٢) البحر المحيط ٤/ ٢٤٦ .

﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

على صدق قولكم فتظهروه لنا ﴿إن تتبعون إلا الظنّ وإن أنتم إلا تخرصون﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلا الظنون والأوهام وما أنتم في الحقيقة إلا تكذبون على الله عز وجل ﴿قل فللّه الحجةُ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ أي قل لهم إن لم تكن لكم حجة فللّه الحجة البينة الواضحة التي بلغت غاية الظهور والإقناع ، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر ليتم التكليف ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ﴿قل هلمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرّم هذا﴾ أي قل لهم يا محمد احضروا لي من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله تعالى حرَّم هذه الأشياء التي تدّعونها من البحيرة والسائبة وغيرهما ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ أي فإن حضروا وكذبوا في شهادتهم وزوّروا فلا تشهد بمثل شهادتهم ولا تصدّقهم فإنه كذبٌ بحتٌ ﴿ولا تتّبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي ولا تتبع أهواء المكذبين بآيات الرحمن الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿وهم بربهم يعدلون﴾ أي وهم يشركون بالله غيره فيعبدون الأوثان .

البَـلاغَـة : ١ ـ ﴿حمولةً وفرشاً﴾ بينهما طباقٌ لأن الحمولة الكبارُ الصالحة للحمل ، والفرشُ الصغار الدانية من الأرض كأنها فرش .

٢ ـ ﴿خطوات الشيطان﴾ هذا من لطيف الاستعارة وهي أبلغ عبارة للتحذير من طاعة الشيطان والسير في ركابه[1] .

٣ ـ ﴿غفور رحيم﴾ من صيغ المبالغة أي مبالغ في المغفرة والرحمة .

٤ ـ ﴿ربكم ذو رحمة واسعة ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ جاءت الأولى جملة اسمية لأنها أبلغ في الإخبار من الفعلية فناسبت وصفه تعالى بالرحمة الواسعة وجاءت الجملة الثانية فعلية ﴿ولا يُردُّ﴾ لئلا يتعادل الإخبار عن الوصفين ، وباب الرحمة أوسع[2] أفاده في البحر .

فَـائِـدَة : في قوله تعالى ﴿قل لا أجد فيما أُوحي إليّ محرماً﴾ إيذان بأن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى ، وأن الله جل وعلا هو المشرع للأحكام والرسول مبلّغٌ عن الله ذلك التشريع كقوله ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحى﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوا أَتلُ ما حرَّم ربكم عليكم . . إلى . . وإنه لغفور رحيم﴾ من آية (١٥١) إلى الآية (١٦٥) نهاية السورة .

---

(١) تلخيص البيان ص ١١ . (٢) البحر المحيط ٤/٢٤٦.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا﴾

المناسبة: لمّا ذكر تعالى ما حرّمه الكفار افتراء عليه وذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان، ذكر هنا ما حرّمه تعالى عليهم حقيقة من الأمور الضارة، وذكر الوصايا العشر التي اتفقت عليها الشرائع السماوية وبها سعادة البشرية.

اللغة: ﴿أتل﴾ أقرأ وأقص ﴿إملاق﴾ فقر يقال أملق الرجل إذا افتقر ﴿أشدّه﴾ قوته وهو بلوغ سن النكاح والرشد، والأشدُّ جمعٌ لا واحد له ﴿بالقسط﴾ بالعدل بلا بخس ولا نقصان ﴿السُّبُل﴾ جمع سبيل وهي الطريق ﴿شيعاً﴾ فرقاً وأحزاباً جمع شيعة وهي الفرقة تتشيع وتتعصب لمذهبها ﴿قيماً﴾ مستقيماً لا عوج فيه ﴿نسكي﴾ النُّسُك جمع نسيكة وهي الذبيحة وقال الزجاج: عبادتي ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة[1].

التفسير: ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم﴾ أي قل يا محمد تعالوا أقرأ الذي حرّمه ربكم عليكم باليقين لا بالظن والتخمين ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ أي لا تعبدوا معه غيره ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، وذُكر ضمن المحرمات لأن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده فكأنه قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين قال أبو السعود: والسرُّ في ذلك المبالغةُ والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما غير كافٍ في قضاء حقوقهما[2] ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر قال ابن الجوزي: المراد دفن البنات أحياء من خوف الفقر[3] ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ أي رزقكم ورزقهم علينا فإن الله هو الرازق للعباد ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ أي لا تقربوا المنكرات الكبائر علانيتها وسرّها قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرّ ويستقبحونه في العلانية فحرمه الله في السر والعلانية[4] ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق﴾ أي لا تقتلوا النفس البريئة التي حرّم الله قتلها إلا بموجب وقد فسّره قول رسول الله ﷺ: (لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيبُ الزاني، والنفسُ بالنفس، والتاركُ لدينه المفارق للجماعة) ﴿ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون﴾ أي ذلكم المذكور هو ما أوصاكم تعالى بحفظه وأمركم به أمراً مؤكداً لعلكم تسترشدون بعقولكم إلى فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا قال أبو حيان: وفي لفظ وصّاكم من اللطف والرأفة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان[5] ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشُدَّه﴾ أي لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التي هي أنفع له حتى يصير بالغاً رشيداً،

(١) تفسير القرطبي ٧/١٥٢. (٢) أبو السعود ٢/١٤٦. (٣) زاد المسير ٣/١٤٨. (٤) الطبري ١٢/٢١٩. (٥) البحر ٤/٢٥٢.

ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟

والنهي عن القرب يعمُّ وجوه التصرف لأنه إذا نُهي عن أن يقرب المال فالنهيُ عن أكله أولى وأحرى والتي هي أحسن منفعةُ اليتيم وتثمير ماله قال ابن عباس : هو أن يعمل له عملاً مصلحاً فيأكل منه بالمعروف ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ أي بالعدل والتسوية في الأخذ والعطاء ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي لا نكلّف أحداً إلا بمقدار طاقته بما لا يعجز عنه قال البيضاوي : أي إلا ما يسعها ولا يعسرُ عليها ، وذكره بعد وفاء الكيل لأن إيفاء الحق عسرٌ فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفوٌّ عنكم[١] ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ أي اعدلوا في حكومتكم وشهادتكم ولو كان المشهود عليه من ذوي قرابتكم ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أي أوفوا بالعهد إذا عاهدتم قال القرطبي : وهذا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين الناس وأضيف إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به[٢] ﴿ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون﴾ أي لعلكم تتعظون ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ أي وبأن هذا ديني المستقيم شرعته لكم فتمسكوا به ولا تتبعوا الأديان المختلفة والطرق الملتوية فتفرقكم وتزيلكم عن سبيل الهدى عن ابن مسعود قال : خطّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً ثم قال هذا سبيل الله ، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه ويساره ثم قال : هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليها ثم قرأ ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه . .﴾[٣] الآية ﴿ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾ كرر الوصية على سبيل التوكيد أي لعلكم تتقون النار بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه قال ابن عطية : لما كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عاقل جاءت العبارة ﴿لعلكم تعقلون﴾ والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من لم يتذكر جاءت العبارة ﴿لعلكم تذكّرون﴾ والسير في الجادة المستقيمة يتضمن فعل الفضائل ولا بد لها من تقوى الله جاءت العبارة ﴿لعلكم تتقون﴾[٤] ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن﴾ أي أعطينا موسى التوراة تماماً للكرامة والنعمة على من كان محسناً وصالحاً قال الطبري : أي آتينا موسى الكتاب تماماً لنعمتنا عليه في قيامه بأمرنا ونهينا فإن إيتاء موسى الكتاب نعمةٌ من الله عليه ومنّةٌ عظيمة لما سلف منه من صالح العمل وحسن الطاعة[٥] ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين ﴿وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾ أي وهدى لبني إسرائيل ورحمة عليهم ليصدّقوا بلقاء الله قال ابن عباس : كي يؤمنوا بالبعث ويصدّقوا

(١) البيضاوي ص ١٨٤ . (٢) القرطبي ٧/ ١٣٧ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٦٣٣ . (٤) البحر ٤/ ٢٥٤ . (٥) الطبري ١٢/ ٢٣٦

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا

بالثواب والعذاب[1] ﴿وهـذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزلناه على محمد كتابٌ عظيم الشأن كثير المنافع مشتملٌ على أنواع الفوائد الدينية والدنيوية ﴿فاتبعـوه واتقوا لعلكـم ترحمـون﴾ أي تمسكوا به واجعلوه إماماً واحذروا أن تخالفوه لتكونوا راجين للرحمة ﴿أن تقولوا إنمـا أُنـزل الكتـاب على طائفتين﴾ أي أنزلناه بهذا الوصف العظيم الجامع لخيرات الدنيا والآخرة كراهة أن تقولوا يوم القيامة ما جاءنا كتاب فنتّبعه وإنما نزلت الكتب المقدسة على اليهود والنصارى قال ابن جرير : فقطع الله بإنزالـه القرآن على محمدﷺ حجتهم تلك ﴿وإنْ كنّا عن دراستهم لغافليـن﴾ أي وإنه الحال والشأن كنا عن معرفة ما في كتبهم ودراستهم غافلين لا نعلم ما فيها لأنها لم تكن بلغتنا ﴿أو تقولوا لـو أنّـا أُنزل علينـا الكتابُ لكنّا أهدى منهم﴾ أو تقولوا لو أننا أُنزل علينا الكتاب كما أُنزل على هاتين الطائفتين لكنّا أهدى منهم إلى الحق وأسرع إجابة لأمر الرسول لمزيد ذكائنا وجدّنا في العمـل ﴿فقـد جاءكـم بينـةٌ مـن ربـكم وهـدى ورحمـة﴾ أي فقد جاءكم من الله على لسان محمدﷺ قرآن عظيم ، فيه بيانٌ للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده قال القرطبي : أي قد زال العذر بمجيء محمدﷺ[2] قال ابن عباس : بيّنة أي حجة وهو النبي ﷺ والقرآن[3] ﴿فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله﴾ أي من أكفر ممن كذّب بالقرآن ولم يؤ من بـه ﴿وصـدف عنهـا﴾ أي أعرض عن آيات الله قال أبو السعود : أي صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال[4] ﴿سنجزي الذيـن يصـدفو ن عن آياتنـا سوء العذاب بمـا كانوا يصدفون﴾ وعيدٌ لهم أي سنثيب هؤ لاء المعرضين عن آيات الله وحججه الساطعة شديد العقاب بسبب إعراضهم عن آيات الله وتكذيبهم لرسله ﴿هـل ينظرون إلا أن تأتيهـم الملائكة﴾ أي ما ينتظر هؤ لاء المشركون إلا أن تأتيهـم الملائكة لقبض أرواحهم وتعذيبها وهو وقتٌ لا تنفع فيه توبتُهم ﴿أو يأتـي ربـك أو يأتـي بعض آيات ربـك﴾ قال ابن عباس : أي يأتي أمر ربك فيهم بالقتل أو غيره وقال الطبري : المراد أن يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه أو يأتيهم بعض آيات ربك وهو طلوع الشمس من مغربها[5] ﴿يـوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفـع نفساً إيمانُهـا لم تكـن آمنـت مـن قبل أو كسبت فـي إيمانها خيراً﴾ أي يوم يأتي بعض أشراط الساعة وحينئذٍ لا ينفع الإيمان نفساً كافرة آمنت في ذلك الحين ولا نفساً عاصيةً لم تعمل خيراً قال

(١) أبو السعود ٢/ ١٤٨ . (٢) القرطبي ٧/ ١٤٤ . (٣) زاد المسير ٣/ ١٥٥ . (٤) أبو السعود ٢/ ١٤٩ . (٥) الطبري ١٢/ ٢٤٥ .

﴿مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

الطبري : أي لا ينفع من كان قبل ذلك مشركاً بالله أن يؤمن بعد مجيء تلك الآية لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله ، فحكم إيمانهم كحكم إيمانهم عند قيام الساعة[١] وفي الحديث (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) [٢] ﴿قل انتظروا إنّا منتظرون﴾ أي انتظروا ما يحلُّ بكم وهو أمر تهديد ووعيد ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ أي فرّقوا الدين فأصبحوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى فرّقوا دين إبراهيم الحنيف ﴿لستَ منهم في شيء﴾ أي أنت يا محمد بريء منهم ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ أي جزاؤ هم وعقابهم على الله هو يتولى جزاءهم ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ أي يخبرهم بشنيع فعالهم قال الطبري : أي أخبرهم في الآخرة بما كانوا يفعلون وأجازي كلاً منهم بما كان يفعل[٣] ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنةٍ واحدة جوزي عنها بعشر حسناتٍ أمثالها فضلاً من الله وكرماً وهو أقلُّ المضاعفة للحسنات فقد تنتهي إلى سبعمائة أو أزيد ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزى إلا مثلها﴾ أي ومن جاء بالسيئة عوقب بمثلها دون مضاعفة ﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي لا يُنقصون من جزائهم شيئاً وفي الحديث القدسي: « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيدُ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغْفـرُ » [٤] فالزيادة في الحسنات من باب الفضل ، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين إن ربي هداني إلى الطريق القويم وأرشدني الى الدين الحق دين إبراهيم ﴿ديناً قيَماً ملةَ إبراهيم حنيفاً﴾ أي ديناً مستقياً لا عوج فيه هو دين الحنيفية السمحة الذي جاء به إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ﴿وما كان من المشركين﴾ أي وما كان إبراهيم مشركاً ، وفيه تعريضٌ بإشراك من خالف دين الإسلام لخروجه عن دين إبراهيم ﴿قلْ إنَّ صلاتي﴾ أي قل يا محمد إنَّ صلاتي التي أعبد بها ربي ﴿ونُسُكي﴾ أي ذبحي[٥] ﴿ومحياي ومماتي﴾ أي حياتي ووفاتي وما أقدّمه في هذه الحياة من خيرات وطاعات ﴿لله رب العالمين﴾ أي ذلك كله للّه خالصاً له دون ما أشركتم به ﴿لا شريك له﴾ أي لا أعبد غير الله ﴿وبذلك أُمِرتُ﴾ أي بإخلاص العبادة للّه وحده أُمرتُ ﴿وأنا أول المسلمين﴾ أي

(١) الطبري ١٢/٢٦٦ . (٢) أخرجه البخاري . (٣) الطبري ١٢/٢٧٤ . (٤) رواه مسلم .
(٥) هذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالنسك العبادة والأول أرجح

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

أولُ من أقرَّ وأذعنَ وخضع لله جلَّ وعلا ﴿قل أغيرَ الله أبغي رباً﴾ تقريرٌ وتوبيخ للكفار، وسببها أنهم دعوه إلى عبادة آلهتهم والمعنى: قل يا محمد أأطلب رباً غير الله تعالى؟ ﴿وهو ربُّ كل شيء﴾ أي والحال هو خالق ومالك كل شيء فكيف يليق أن أتخذ إلهاً غير الله؟ ﴿ولا تكسب كلُّ نفسٍ إلا عليها﴾ أي لا تكون جناية نفسٍ من النفوس إلا عليها ﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾ أي لا يحمل أحدٌ ذنب أحد، ولا يؤ اخذ إنسانٌ بجريرة غيره ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ وهذا وعيدٌ وتهديدٌ أي مرجعكم إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ويميز بين المحسن والمسيء. ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي جعلكم خلفاً للأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضكم بعضاً قال الطبري: أي استخلفكم بعد أن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها[١] ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي خالف بين أحوالكم في الغنى والفقر، والعلم والجهل، والقوة والضعف وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد ﴿ليبلوكم في ما آتاكم﴾ أي ليختبر شكركم على ما أعطاكم قال ابن الجوزي: أي ليختبركم فيظهر منكم ما يكون به الثواب والعقاب[٢] ﴿إنَّ ربك سريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيم﴾ أي إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه، قال في التسهيل: جمع بين الخوف والرجاء، وسرعة العقاب إما في الدنيا بتعجيل الأخذ أو في الآخرة لأن كل ما هو آتٍ قريب[٣].

البـــلاغـــة: ١ - ﴿ولا تتبعوا السُّبُل﴾ السُّبل استعارة عن البدع والضلالات والمذاهب المنحرفة.

٢ - ﴿لا نكلف نفساً﴾ التنكير لإفادة العموم والشمول.

٣ - ﴿وبعهد الله﴾ الإضافة للتشريف والتعظيم.

٤ - ﴿يصدفون عن آياتنا﴾ وضع الظاهر مكان الضمير ﴿عنها﴾ لتسجيل شناعة وقباحة طغيانهم.

٥ - ﴿قل انتظروا﴾ الأمر للتهديد والوعيد.

٦ - ﴿لا ينفع نفساً إيمانها..﴾ الآية اشتمل هذا الكلام على النوع المعروف من علم البيان باللَّف

(١) الطبري ١٢/ ٢٨٧. (٢) زاد المسير ٣/ ١٦٣. (٣) التسهيل ٢/ ٢٨.

وأصل الكلام : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنةً قبلُ إيمانُها بعدُ ، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبلُ ما تكسبه من الخير بعدُ ، إلا أنه لفّ الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً بلاغة واختصاراً وإعجازاً ، أفاده صاحب الانتصاف[١] .

٧ ـ بين ﴿ظهر﴾ و﴿بطن﴾ طباق وبين ﴿الحسنة﴾ و﴿السيئة﴾ طباق كذلك وهو من المحسنات البديعية .

٨ ـ ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ قال الشريف الرضي : ليس هناك على الحقيقة أحمال على الظهور وإنما هي أثقال الآثام والذنوب فهو من الاستعارة اللطيفة[٢] .

فائدة : وحّد تعالى ﴿سبيله﴾ لأن الحق واحد وجمع ﴿السُّبل﴾ لأن طرق الضلالة كثيرة ومتشعبة .

تنبيه : قال الحافظ ابن كثير : كثيراً ما يقرن تبارك وتعالى في القرآن بين هاتين الصفتين ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ كقوله تعالى ﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب ، فتارةً يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهما لينجع في كلٍ بحسبه[٣] .

« تم تفسير سورة الأنعام بعونه تعالى وله الحمد والمنّة »

* * *

(١) حاشية الكشاف ٢/ ٦٤ . (٢) تلخيص البيان ص ٤٠ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٦٤٢ .

طُبعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالي السيّد حَسَن عَبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقفًا لِله تعالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع

